نسخة معالجة ومخفضة

فريدون صاحب جم

رَجم ثُريا

قصة حقيقية

على مدار الخمسة والعشرين عامًا الماضية، رُجمت أكثر من ١٥٠٠ امرأة حتى الموت في إيران. هذه قصة حقيقية وصادمة عن إحداهن.

www.ibtesama.com

< هذه الصفحة البيضاء متروكة فارغة عن عمد >

تخفيض الحجم والمعالجة
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

رجم ثريا

تأليف

فريدون صاحب جم

ترجمة

كوثر محمود محمد

مراجعة

إيناس حامد المغربي

كلمات عربية

www.ibtesama.com

رجم ثريا

فريدون صاحب جم

The Stoning of Soraya M.

Freidoune Sahebjam

الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ-٢٠١١م
رقم إيداع ٢٠١١/٥١٣٤
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١+ فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١+
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

صاحب جم، فريدون
رجم ثريا: قصة حقيقية . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١١.
١٢٨ص، ١٤,٥×٢١,٠سم
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٧٩ ٦
١- القصص الفارسية
٢- القصص الواقعية

٨٩١,٥٥٣

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2011 Kalimat Arabia
The Stoning of Soraya M.
Copyright © Grasset & Fasquelle, 2010.
All Rights Reserved.

www.ibtesama.com

الصورة الوحيدة المعروفة لثريا مانوتشهري التقطها لها مصور جوال
وهي في التاسعة من عمرها

www.ibtesama.com

المحتويات (إنتقال تلقائي بالضغط على الفصل الذي ترغب الإنتقال إليه)

مقدمــة..... ٩

الفصل الأول..... ١٧

الفصل الثاني ٣١

الفصل الثالث ٤١

الفصل الرابع..... ٦٥

الفصل الخامس ٧٩

الفصل السادس ٨٩

الفصل السابع..... ١٠٧

الفصل الثامن..... ١١٥

www.ibtesama.com

إهداء

إلى صافيناز،
إلى كارولين وسيسيل،
إلى ميشيل التي أصرت أن أعيد هذه القصة إلى الأذهان،
والتي لم تعد موجودة معنا الآن لقراءتها.

www.ibtesama.com

هذا العمل لا يستهدف الربح إنما المساهمة البسيطة في نشر المعرفة

الرجاء الحرص على شراء العمل الاصلي للحفاظ على إستمراريه الإنتاج الثقافي

haleem

www.ibtesama.com

مقدمة

يسرد هذا الكتاب بالتفصيل وقائع حادثة إعدام بالرجم، ليست إلا واحدة بين آلاف أحكام الإعدام المماثلة التي شهدتها إيران على مدار الخمسين عامًا الماضية. بعد خلع شاه إيران، ووصول النظام الأصولي بقيادة آية الله الخميني إلى السلطة في فبراير/شباط عام ١٩٧٩، أُطلق سراح العديد من المشتبه فيهم، بما في ذلك مرتكبو الجرائم المخالفون للقانون العادي، الذين سجنوا لأسباب وجيهة إبان حكم الشاه. ومن بين هؤلاء — خاصّة من كان منهم ملمًّا إلمامًا سطحيًّا بالقرآن وتعاليمه — من ارتدى زي رجال الدين ولقب نفسه ملا، وجاب البلاد بحثًا عن فرصة لإثراء نفسه وإخفاء ماضيه عن السلطات. وخير مثال عليهم هو الشيخ حسن الذي سيتناوله هذا الكتاب والذي لعب دورًا مهمًّا في المكائد التي أفضت إلى مقتل ثريا.

دعوني أعود بالزمن إلى الوراء قليلًا لأشرح لكم كيف وقعت بالصدفة على هذه القصة التي أنتم بصدد قراءتها.

أنا إيراني الأصل، ولدت في فرنسا، وقضيت بعض سنوات نشأتي هناك وبعضها في سويسرا حيث كان والدي أحد المفوضين الإيرانيين في منظمة عصبة الأمم. ومع ذلك لم أفد إلى البلد الذي تنحدر منه أصولي إلا في العشرين من عمري، حيث قضيت هناك أربعة أعوام في إتمام الخدمة العسكرية، وبعدها درَّست الفرنسية في المعهد الفرنسي الإيراني في طهران، والإنجليزية في الجمعية الأمريكية الإيرانية، ثم عملت مبعوثًا دبلوماسيًّا لإيران من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٦، ثم صحفيًّا وكاتبًا في مجلات وصحف فرنسية وإيرانية. وعلى الرغم من أنني وعائلتي كنا على معرفة بالشاه وبأفراد

www.ibtesama.com

الأسرة المالكة كتبت في السبعينيات من القرن العشرين بعض المقالات التي تنتقد الشاه خاصةً فيما يتعلق بحقوق الإنسان. وفي الواقع أكسبتني تلك المقالات عداء جهاز السافاك؛ شرطة الشاه السرية التي لم تكن تتقبل أي نقد يوجه لسياسات الدولة وممارساتها.

في أواخر عام ١٩٧٨، قبل صعود آية الله الخميني إلى السلطة بأشهر قليلة، كتبت مقالًا في صحيفة لوموند الفرنسية بعنوان «لا ماركس ولا محمد» حذرت فيه أبناء وطني من مخاطر محتملة قد تنبع من الناحيتين، فذكرتهم من ناحية برغبة روسيا منذ القدم — منذ عهد ما قبل الشيوعية، بل منذ بداية القرن حقيقةً — ليس فقط في بسط نفوذها وإنما توطيد أقدامها في بلد يسمح لها بالنفاذ إلى البحار في جنوبها وبخاصة منطقة الخليج الفارسي، وحذرتهم من ناحية أخرى من المحاولات التي يبذلها رجال الدين الشيعيون لزعزعة نظام الشاه الملكي الموالي للغرب وإبداله بنظام حكم ديني متحفظ.

وفي يوم السبت الذي وافق ١٢ مايو/أيار عام ١٩٧٩، وأثناء مغادرتي لشقتي في حي نويلي في باريس، في طريقي لزيارة بعض أصدقائي، اتجهت سيارة إلى رصيف الشارع وتوقفت فجأة، ثم قفز منها أربعة رجال زجوا بي في مقعدها الخلفي وقيدوني وكمموني، فأغشي علي من أثر الكلوروفورم الذي بلل الكمامة، ولما أفقت، وجدت نفسي في الدور الأرضي لإحدى البنايات — علمت فيما بعد أنها كانت الجناح الإيطالي بمبنى الإسكان الجامعي بباريس — ومن حولي حشد غاضب من الطلاب الإيرانيين الملتحين ذوي الشعر الأشعث الذين يصرخون بأعلى صوتهم ويلوحون لي متوعدين. كنت مقيدًا بكرسي وسط الغرفة، وأمامي طاولة جهز عليها ميكروفونات وأجهزة تسجيل. كنت أول ضحايا «المحاكمات الإسلامية» في باريس، وهي محاكمات تشبه تلك التي أقامها المئات في إيران منذ عودة الخميني إلى البلاد في فبراير/شباط من ذاك العام، محاكمات تنتهي في جميع الأحوال بعد ساعات قليلة باقتياد المدعى عليه إلى فناء أحد السجون أو الثكنات العسكرية ليرديه فريق إطلاق النيران قتيلًا في الحال برميه بالرصاص. على مدار المائة يوم السابقة على اختطافي، قتل بهذه الطريقة ما يقرب من

www.ibtesama.com

ثمانمائة وزير وعضو برلماني وجندي ومفكر وعالم وصديق مقرب لأفراد البلاط الملكي السابق، ووُضعت لائحة بأسماء أعداء الدولة المخطط لاغتيالهم تضم أفراد العائلة المالكة والوزراء وقادة الجيش السابقين وكل من يظاهر بعدائه للنظام الحاكم الجديد. فلما كنت صحفي ليس إلا، لم يدرج اسمي بتلك اللائحة، مع أنني أجريت مقابلة صحفية مع الشاه قبل وقت قصير من خلعه في يناير/كانون الثاني، ثم أجريت بعدئذٍ مقابلات صحفية أخرى معه في مصر والمغرب استكمالًا للمقابلة سالفة الذكر، وكنت في الواقع أول صحفي يجري معه مقابلة صحفية في بداية نفيه، ونشرت مقالاتي في قرابة عشرين صحيفة ومجلة، ونتيجة لذلك دعيت إلى المشاركة في العديد من البرامج الحوارية السياسية الإذاعية والتليفزيونية لأناقش التطورات السريعة التي يشهدها الوضع في إيران، الأمر الذي قمت به، وتسبب في تأجيج غضب السفارة الإيرانية في باريس علي. كل هذا، بالإضافة إلى المقال الذي كتبته بصحيفة لوموند الذي كان بلا شك السبب في اختطافي ذاك السبت من شهر مايو.

استمرت «محاكمتي» ثماني ساعات متواصلة، وتتابعت علي الأسئلة والضربات بوتيرة متناوبة أخذت في التسارع، واتهمت بشتى الاتهامات: من كوني جاسوسًا إلى كوني عميلًا مزدوجًا إلى كوني عميلًا محرضًا، بل اتهمت أيضًا بأنني عضو في فريق تعذيب جهاز السافاك. فلما تسرب أخيرًا خبر بأن ثمة عملاً مشينًا يرتكب في الدور الأرضي من الجناح الإيطالي، وصلت الشرطة الفرنسية وأطلقت سراحي. كنت قد أصبت بكسر في جمجمتي، وانكسرت ثمانية من أسناني؛ إذ ظللت ثماني ساعات طوال أرفض أن أقر بذنبي أو ألوم نفسي أو أسب الشاه أو أشدو بمديح الخميني.

بعدها تصدرت قصة اختطافي وتعذيبي عناوين الصفحة الأولى للصحف عدة أيام، لا في فرنسا فحسب بل أيضًا في ألمانيا وسويسرا وإنجلترا وإيطاليا، وكانت النتيجة المباشرة لتلك التجربة هي أنني قررت أن أسلط الضوء أكثر على الشئون السياسية في كتاباتي المستقبلية، واضطررت أثناء تلك الفترة أن أصارع الواقع الجديد الذي بت أعيشه؛ إذ لما أصدرت طهران حكمًا علي بالإعدام لأنني «شننت حربًا على الله» و«لم أحترم قداسة الخميني» أجبرت

www.ibtesama.com

على التخفي والابتعاد عن عائلتي وتبني هوية جديدة على مدار الأعوام الأربعة التالية، ولم تخف حدة رقابة ملاحقيّ لي إلا في عام ١٩٨٣ بعد أن هاجمت علنًا بعض شخصيات جبهة المعارضة لقضائهم أغلب وقتهم في مهاجمة بعضهم بعضًا بلا جدوى. بعدها وقبل أن يمضي وقت طويل بدا أنني أصبحت شخصًا منسيًّا في أعين طهران وممثليها، وصرت أيضًا بحلول هذا الوقت رجلًا بلا جنسية، ولاجئًا سياسيًّا مسلوب الهوية.

لكنني زرت إيران في رحلتين بأوراق هوية مزورة، قبل أن تأمر طهران مراقبيها بالكف عن تهديدي، أولاهما كانت في عام ١٩٨١، والأخرى كانت بعدها بعام بغرض أن أشهد بأم عيني ما يحصل هناك بالضبط، وعن طريق تلك الرحلة الأخيرة التي قمت بها في عام ١٩٨٢، أصبحت أول صحفي يكشف النقاب عن تجنيد الخميني للصبية ما بين اثني عشر عامًا وأربعة عشر عامًا وإرساله إياهم للحرب ضد العراق، والتقيت فيما بعد ببعض هؤلاء الصبية في معسكرات أسرى الحرب بالعراق حيث استلقوا جرحى يلفظون أنفاسهم الأخيرة. من هنا جاء كتابي «دموع البكاء نفدت» وهو كتاب عن صبي في الرابعة عشرة من عمره، يدعى رضا باعته أمه للجيش الإيراني ليبذل حياته لله والإمام الخميني. وعلى مدار العشرة أعوام التالية سافرت إلى إيران في سبع مهام صحفية أخرى لتغطية بعض القصص عن الوضع الإيراني، واعتقلت مرتين، وكان من الممكن — وربما كان من الواجب — أن أعدم فيهما لولا أنني استطعت التحايل لنيل حريتي بالتفاوض والرشوة؛ ففي إيران، لكل شيء ثمن إن تمتعت بملكة التفاوض وعقد الصفقات والقدرة على دعم أقوالك بالعملة الصعبة.

كانت إحدى هذه الرحلات في خريف عام ١٩٨٦ عندما أرسلتني صحيفة باريس ماتش الأسبوعية للتحري عن أطباق الأقمار الصناعية ومحطات الاستماع المنشأة على طول حدود إيران الشرقية الجنوبية مع باكستان وأفغانستان. وبينما توفرت «محطات التجسس» هذه من قبل الروس وعمل بها فنيون من ألمانيا الشرقية وبلغاريا، انهمك الصينيون والكوريون الشماليون في بناء قاعدة بحرية عسكرية في مدينة تشابهار في أعماق خليج عمان. على كل، بعد أن أتممت مهمتي، وصلت إلى قرية صغيرة

www.ibtesama.com

لا تبعد عن الحدود الباكستانية، تقرر أن أنتظر فيها المرشدين المحليين المزمع أن يرافقونني سرًا إلى الحدود. كنت قد وصلت قبل الموعد المحدد بساعات قليلة؛ فأخذت أمضي الوقت في القرية الجبلية الصغيرة محاولًا قدر الإمكان ألا أبدو لافتًا للأنظار. ولكن مع أنني ارتديت الزي الإيراني التقليدي، بدا واضحًا أنني لست من أهل القرية. من ثم، قبل أن يمضي وقت طويل، أشارت إلي عجوز تجلس في حديقة منزلها بالذهاب إليها وقدمت لي بعضًا من الشاي. هذه المرأة هي السيدة زهرة التي سيتعرض لها هذا الكتاب، وكنت قد أطلقت على القرية التي تقع أحداث القصة فيها اسمًا عامًّا هو كوبايه؛ لأنني آثرت الاحتفاظ لنفسي باسم القرية الصحيح وموقعها المحدد.

بعدما احتسيت عدة أكواب من الشاي، أخبرتني المرأة بأنها عمة امرأة ماتت في الخامسة والثلاثين من عمرها، كانت تدعى ثريا، وبأنني إن تواجدت في القرية قبل ذلك الحين بأسبوعين فقط، كنت سأشهد حدثًا مريعًا: لقد رجمت ثريا حتى الموت لخيانتها لزوجها. أخذت زهرة تصف ذلك الحدث وهي ترتجف رغمًا عنها. أسوأ ما في الأمر هو أنها قالت إن ثريا كانت بريئة من كل إثم، فسألتها كيف حدث الأمر، وما الذي قاد إلى هذه الجريمة البشعة؟

لما بدأت زهرة تسرد لي التفاصيل، وصل مرشديّ. لكن المرأة بدت صادقة ومقنعة جدًّا — وكذلك شعرت بالفضول والاهتمام الشديدين — حتى إنني وعدتها بالعودة حتى قبل أن أتركها، وحددت في الواقع موعدًا للقائها ثانيةً، كان بعد يومين من السنة الإيرانية الجديدة؛ في ٢٣ مارس/آذار عام ١٩٨٧.

عدت إلى القرية في الموعد المحدد، وتظاهرَت زهرة بأنني ابن أخ لها يعيش في طرف قصي من البلاد، جاء ليمضي عطلته معها، وسردت لي في الوقت الذي أمضيته معها قصة ثريا الكاملة؛ منذ طفولتها إلى اليوم المريع الذي شهد محاكمتها وإعدامها. كانت كوبايه قرية صغيرة من بين آلاف القرى التي تتناثر في كافة أرجاء إيران، يقطنها ٢٥٠ شخصًا. وهي قرية تحيطها المروج والغابات، وقد حباها الله بنهر جبلي صغير صافٍ. والتقيت عن طريق زهرة بأغلب شخصيات هذه القصة الدرامية من والد ثريا إلى

www.ibtesama.com

زوجها إلى عمدة القرية إلى أطفال ثريا وجيرانها؛ فاستطعت أن أنغمس في مناخ البلدة، وأتاحت لي زهرة كل الإجابات التي احتجتها لنسج أحداث القصة من جديد بدقة وأمانة. الشخص الوحيد الذي لم ألقاه هو الملا، الشيخ حسن، الذي كان خارجها آنذاك. وفي ذلك الوقت وبالكاد بعد ستة أشهر من تلك الحادثة بدا أن أهل القرية — وهم أناس يبدو أنهم مجدون محترمون — قد نسوا الجريمة الجماعية التي ارتكبوها. فعلى الرغم من كل شيء، نظام آية الله الخميني هو من شجع وأحيا الرجم، وهم لم يؤدوا إلا واجب تطهير القرية، شأنهم شأن أهل مئات القرى التي مارست التطهير في السنوات الماضية مستظلين «باسم الله الرحمن الرحيم».

عندما فارقت زهرة في أواخر شهر مارس/آذار، كنت موقنًا من أنني لن أراها ثانية؛ فلما خلفت هذه الفاجعة لديها جرحًا وحطمتها، تركت نفسها تساق إلى الموت، وقضت نحبها بعدها بعامين، لكنني لم أعلم بوفاتها إلا بعدها بوقت طويل، عندما عدت إلى أوربا.

تحظر القوانين في البقاع الإسلامية عقوبة الرجم رسميًّا، لكن إن ارتأت أي سلطة دينية تطبيقها، فبإمكانها أن تقترح هذا. فعندما يحج المسلمون إلى مكة، يمرون في آخر يوم لرحلة الحج بجبل عرفات الذي تقع عنده ثلاثة أعمدة ضخمة ترمز إلى الشيطان، عندها يلتقط الحاج حجرًا ويقذفها به رمزًا إلى تطهير المكان من الشيطان. والمرأة التي تخون زوجها تعد شيطانًا، لذا لا بد من رجمها. لا شك أن المدن الكبرى — التي يشنق فيها الضحايا — تخلو من مظاهر الاقتداء بتلك العادات القديمة؛ فالرجم يمارس في المناطق النائية من إيران بين الجبال، بعيدًا عن أعين الفضوليين. وبعد تنفيذ العقوبة، يتباهى أهل القرية بما فعلوه ويحظون بمباركة أعلى السلطات الدينية على هذا «العمل الرائع». أما في المدن، فتستطيع النساء اللائي اتهمن بالزنا أن يكفرن عن خطيئتهن بدفع مبلغ من المال لأحد رجال الدين؛ فإن كن أثرى من أزواجهن، فمن الممكن أن يُغفر لهن. لكن في الأغلب تكون المرأة فقيرة، الأمر الذي يعني أنها تصبح تقريبًا أمة لزوجها، لا تملك حقوقًا إلا حق التزام الصمت الهزيل، وكل ما يحتاجه الزوج ليثبت

www.ibtesama.com

أن زوجته خائنة هو أن يأتي بشاهدين يكونان في العادة من شركائه في الجريمة أو أصدقائه، فيما تضطر الزوجة المتهمة إلى إثبات براءتها، وهذا مستحيل؛ إذ لن يهبَّ أحد للشهادة لصالحها.

نظرًا لكل هذه الأسباب الواضحة، من الصعب الوصول إلى إحصائيات قاطعة عن حوادث الرجم. وعلى الرغم من ذلك أقرت الحكومة الإيرانية — أو أعلنت وفقًا لوجهة النظر التي يتبناها من قام بتقدير الإحصاء — رجم ما بين خمسمائة وستمائة امرأة حتى الموت في السنوات الخمسة الأولى التي أعقبت صعود نظام الخميني إلى السلطة، من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٣. وإن استقينا المزيد من المعلومات التي أوردتها مصادر موثوقة أخرى في هذا الشأن — من بينها لجنة حقوق الإنسان التابعة للولايات المتحدة ومنظمة العفو الدولية ومنظمة الصليب الأحمر ورابطة حقوق الإنسان والعديد من الجمعيات النسائية — فيمكننا أن نقول بثقة إن إيران شهدت رجم ما لا يقل عن ألف امرأة على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية، وإحدى أشهر حوادث الرجم التي وقعت مؤخرًا في ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٩٢ كانت في بلدة صغيرة تدعى كاراج تبعد خمسة وعشرين ميلًا عن طهران.

لم تعد إيران اليوم تتباهى بعقوبات الشنق والرجم وأحكام الإعدام الفورية بغرض تحسين صورتها أمام الدول الأخرى، لكن الحقيقة القاسية المؤلمة هي أن تلك الممارسات الهمجية لا تزال تمارس في العديد من أرجائها، بهدف تعظيم مجد إسلام رجعي متشدد لا يعرف التغيير.

فريدون صاحب جم

www.ibtesama.com

لا تكن كالمنافقين
الذين يحسبون أن بمقدورهم أن يطمسوا خداعهم
بالصراخ بكلمات القرآن

الشاعر الإيراني حافظ

www.ibtesama.com

الفصل الأول

في جنوب غرب إيران على بعد ما يقرب من خمسة وثلاثين ميلًا من مدينة كرمان، تقع قرية كوبايه التي يعني اسمها «سفح الجبل»، إذ إنها تجاور سفح جبال يابسة، وهي قرية تضم مجموعة قليلة من البيوت المبنية بالطوب اللبن المسقوفة بالقش، ويحد أحد جانبيها نهر جليدي جارٍ، وتحد الآخر غابة من أشجار الزان والبتولا والزيتون، ومن خلفها حقول ومروج ممتدة يُرعى فيها عدد قليل متناثر من الأبقار والأغنام.

لم تكن قرية كوبايه من القرى التي يسهل الوصول إليها؛ فعليك أن تسلك الطريق الوحيد، وهو ليس طريقًا ممهدًا؛ إنه طريق متعرج يتجه إلى أعلى، مليء بعشرات عديدة من المنعطفات الحادة، وتملؤه الأتربة بقدر ما تملؤه المخاطر. ومع ذلك في هذا الطريق، ومرة واحدة كل أسبوع، في يوم السوق، تتمايل وتترنح حافلة متهالكة قديمة لكي تصل إلى قرية كوبايه في الصباح وبها مجموعة من الركاب الذين تتراكم بضائعهم على ظهرها، وأغلبهم من الفلاحين الذين قدموا لبيع هذه البضائع أو إبدالها ببضائع أخرى يحملونها معهم إلى الوادي ليحاولوا بيعها هناك.

في تلك القرية، ولدت ثريا عام ١٩٥١.

لقد جاءت إلى العالم يوم زفاف شاه إيران، وسميت باسم عروسه الأميرة ثريا؛ إذ كانت البلاد بأسرها تحتفل بهذه المناسبة السعيدة.

كان والد الطفلة مرتضى رمضاني — الذي تزوج في وقت متأخر من العمر — بلا شك سعيدًا بأن الله وهبه هذه الطفلة، حتى إنه قال في

www.ibtesama.com

ثقة: «ستكون أجمل فتيات القرية، وسأزوجها لأفضل شاب بالمدينة. وسيكون عليه أن يثبت جدارته.»

أما والدة الطفلة، وهي امرأة تقية واهنة تدعى شُوكت، فقد أنجبت أول طفل لها وهي في الثالثة عشرة من عمرها، ثم أنجبت أربعة أطفال آخرين، توفي اثنان منهم في طفولتهما. وبعد أن أنجبت ثريا، جاء إليها طبيب من مدينة كرمان لفحصها، وأخبر زوجها مرتضى بأنها ستلقى حتفها حتمًا إن حبلت في طفل آخر.

عندئذٍ اتخذ مرتضى زوجة ثانية بموجب زواج متعة حسبما ينص القانون الإيراني، وانتقلت زوجته الثانية إلى بيته للعيش فيه وأنجبت له أربعة أطفال آخرين.

وتعايش الجميع في سلام، لكن ظلت شوكت المرأة التي يفضلها الجميع في المنزل، في حين أُسندت جميع المهام والواجبات الأقل شأنًا إلى الزوجة الثانية لمرتضى، التي أدتها طوال سنوات عديدة بدون أي تذمر. ولما شُلت شوكت بسبب مرضها، تولى الابنان الأكبر سنًّا ومعهما ثريا إدارة شئون المنزل. وكان قد سنح لثلاثتهم تعلم القراءة والكتابة؛ فاستطاعوا أن يقرءوا القرآن والإعلانات المحلية لبقية أفراد الأسرة. لقد تعلموا مهارتي القراءة والكتابة في مدرسة القرية، التي لم يكن بابها مفتوحًا يوميًّا؛ لأن ناظر المدرسة كان أيضًا خزاف البلدة، وعندما كان عليه أن يشرف على خبز الخزف، كان يُسمح للأطفال باللعب في الحقول. وفي أحد أيام العطلة المدرسية تلك، التقت ثريا لأول مرة بالصبي غوربان علي، لقد كانت آنذاك في الخامسة من عمرها، في حين كان هو في الثانية عشرة من عمره.

وذات يوم قرر غوربان علي أن يصنع طائرة ورقية؛ فأمضى ساعات متواصلة في لصق قطع الخشب والورق متعدد الألوان اللازمة لها، وعلى الرغم من محاولاته، لم تستطع الطائرة الطيران؛ فتارةً كان الخشب ثقيلًا جدًّا، وتارةً كان الورق يتمزق بفعل قوة الرياح، وتارةً كان الصمغ لا يلتصق بالطائرة، وتارةً أخرى كان الخيط ينفصل عنها. في آخر الأمر، استطاع غوربان أن يجعلها تحلق في الهواء، وحانت اللحظة الرائعة أخيرًا؛ فاجتمع في المرج أطفال بلغ عددهم عشرين طفلًا أو ما يقارب ذلك، وتتراوح أعمارهم

www.ibtesama.com

ما بين الخامسة والخامسة عشرة، وحبس الجميع أنفاسهم عندما كانت الطائرة الورقية تُحلق ببطء وخيلاء إلى السماء. فكانت فرصة للشعور بالبهجة الشديدة، وسُمح لكل طفل تلو الآخر بأن يقوم بمفرده بتوجيه الطائرة وهي تحلق في السماء، ثم جاء دور ثريا آنذاك؛ فركضت باستحياء عبر المرج ممسكة بالخيط الطويل الذي تقع الطائرة في طرفه. ولكن حينما شاهدت جمع الأطفال الذي كان يهتف لها لتشجيعها، تعثرت فوق حجر وسقطت على الأرض، وأفلتت الطائرة الورقية من يدها، فحلقت الطائرة عاليًا في السماء ثم سقطت تجاه الأرض؛ فلما حملت ثريا نفسها على النهوض بألم بعدما خُدشت ركبتها وأخذت تنزف دمًا، كان أصدقاؤها الصغار قد اختفوا ....

حينئذ ركضت ثريا طوال الطريق عائدة إلى البيت واختبأت هناك.

ضمّدت والدتها ركبتها، وقبل أن يمضي وقت طويل، عاودت ثريا الخروج من المنزل. وما إن خطت بضع خطوات خارجه حتى بدأ جميع الأطفال لاهثين في لومها وتوبيخها قائلين: «تعالي لتشاهدي ما صنعت ... أيتها الخرقاء! لا نريدك أن تلعبي معنا ثانيةً!»

لم تدر الطفلة كيف تدافع عن نفسها.

وصاح غوربان علي فيها قائلًا: «تعالي وانظري أين جعلت الطائرة تهبط.»

وقبض غوربان على معصم الطفلة الصغيرة، وسحبها وراءه إلى أدنى أطراف القرية وسار بقية الأطفال في إثرهما. لقد جثمت الطائرة الورقية عاليًا فوق إحدى أشجار الزان، في مكان مرتفع جدًّا حتى إنه استحال إنزالها؛ فأكبر سلم في قرية كوبايه لم يزد ارتفاعه عن ٣٩٦,٢٤ سنتيمتر، ولم يكن طول أي من الأعمدة التي استخدمها أهل القرية في هز الأشجار عند جمعهم للبندق كافيًا لتسلق الشجرة، وكذلك كان من المحال تسلق هذه الشجرة لأن أغصانها كانت أضعف من أن تحتمل أي وزن حتى لو كان وزن صبي. أما عن تطويق الشجرة وهزها، فتلك الفكرة لم تكن حتى حلًّا واردًا؛ لأن جذع الشجرة كان عريضًا جدًّا حتى إنه لا يمكن لأي طفل تطويقه.

www.ibtesama.com

من هنا صاح غوربان علي معلنًا عن قراره: «سيكون عليك أن تصنعي لنا طائرة ورقية أخرى، وإلى أن تفعلي ذلك، غير مسموح لك باللعب معنا مجددًا.» وحظي هذا القرار بتأييد جميع الأطفال الآخرين الذين أخذوا يقذفون ثريا بحفنات من الرمال والحصى؛ فأحنت رأسها إلى أسفل قدر استطاعتها، وانتظرت إلى أن ينتهوا من قذفهم لها بالرمال. وعلى الرغم من أنها شعرت بالحزن والاستياء، فإنها لم ترد أن تبكي أمام أصدقائها. وقاومت رغبتها في البكاء، وأغلقت عينيها بشدة. وعندما اختفت الأصوات من حولها آنذاك، رفعت رأسها ووجدت أنه لم يتبق إلا ابنة عمها معصومة التي كانت تجلس بجوارها.

قالت لها معصومة: «لا تقلقي، سأساعدك في صنع طائرة ورقية أخرى. انتظري فحسب، ستكون أفضل حتى من تلك.»

ردت ثريا قائلة: «أنا أكره غوربان علي، أكرهه، أكرهه. لا أريد أن أراه أبدًا ما حييت.» وبعد هذه الحادثة، خلت حياة ثريا من الأحداث المهمة بضع سنين.

وحينما بلغت العاشرة من عمرها، أرسلها والداها إلى مدينة كرمان لاستكمال تعليمها بالتدرب في بيت سيد القرية وهو رجل موسر يملك أرضًا.

في هذا البيت، كان الأطفال الذين يتدربون يحصلون فحسب على طعام ومكان للمبيت، ولم يكونوا يتقاضون أجرًا. كانوا يعملون خمس عشرة ساعة يوميًّا ولا ينالون إلا قسطًا قليلًا من النوم؛ فحتى أثناء الليل كانوا كثيرًا ما يُوقظون لسبب أو لآخر.

وكانت الطفلة الصغيرة تكره هذا السيد الثري. لقد كان بدينًا، أشعث الشعر، متغطرسًا، كثيرًا ما يضربها، لكن ما الذي عساك أن تفعله عندما تجد نفسك تتعامل مع رجل بهذه القوة، يحتفظ دومًا بمسدس في سيارته؟ كانت ثريا تطأطئ الرأس له، وتطلب منه الصفح، وتُقبل يده، واحتملت طوال ثلاث سنوات إذلاله لها وثورات غضبه وتحرشاته بها عند غياب زوجته؛ فكان الأمر دائمًا ما يسير على المنوال نفسه آنذاك. كان يستدعيها إلى غرفته، ويجردها من ملابسها ببطء، ويخبرها بأشياء لا تفهمها، وبعدما تصبح عارية تمامًا، كان يتحسسها وهو يستمني بيده. ولكن الطفلة لم

www.ibtesama.com

تفهم شيئًا، ولم تشعر بشيء، وكذلك لم تتفوه بشيء. وكان يشكرها بإعطائها بعضًا من الفستق أو البلح. وفجرًا، كانت تعاود العمل من جديد.

لم تر ثريا والديها طوال ثلاثة أعوام، لكن أحيانًا كان أحد إخوتها يأتي لزيارتها، وعندها كان يُسمح لها بقضاء ربع ساعة معه في الحديقة.

وكان لا بد أن تحتفظ ثريا بعذريتها إلى أن تتزوج، وهو الأمر الذي قد فطن إليه سيد القرية البدين؛ لأنها إن فقدتها ستشيع فضيحة عارمة تضطره إلى دفع تعويض مالي لوالدها، ذلك علاوة على أن السلطات الإيرانية آنذاك، قبل الثورة الإيرانية بوقت طويل، كانت لا تتهاون في فرض العقوبات عندما يتعلق الأمر بالفاحشة الجنسية.

كذلك كان ابنا الرجل الثري يسخران من ثريا، ويتحسسان ثديها ويلمسان ردفيها، إلا أن الأمر لم يتخط أكثر من ذلك؛ لأنهما كانا يعلمان أنها محل اهتمام والدهما؛ ففي أحد الأيام، صفع الأب أحدهما بعنف عندما لامس ثريا أثناء وجوده في الغرفة. وحينئذ تملك ثريا الذعر ولاذت بالفرار من الغرفة واختبأت في قبو المنزل.

وبعد مرور أسبوع على تلك الحادثة عادت ثريا إلى منزلها في قرية كوبايه لتبقى فيها إلى الأبد. بحلول ذلك الوقت كانت ثريا شابة صغيرة السن أتمت الثالثة عشرة من عمرها، وقد تقرر أن تتزوج من غوربان علي — الذي كان في العشرين من عمره آنذاك — وذلك نظير عدد من الماشية وقطعة أرض وعدد من البسط.

وعندما التقى غوربان علي بثريا من جديد، لم يتعرف عليها، لكنه شعر ذاك اليوم بشعور الرجولة لأول مرة؛ إذ لم تكن لديه أي تجارب سابقة مع النساء؛ وذلك لأكثر من سبب؛ لأنه بادئ ذي بدء لم يجد بالقرية المرأة التي تناسبه، وكذلك هو لم يقصد مدينة كرمان قط، وأخيرًا، لم يملك ما يكفي من المال ليقصد أيًّا من بيوت الدعارة لو استطاع بسبيل أو بآخر أن يقصد تلك المدينة على أي حال. وعلى الرغم من أن القرية كان بها الكثير من الفتيات، فقد كن إما صغيرات السن جدًّا أو لم يكن لديهن ما يقدمنه مهرًا أو كان يجدهن في غاية القبح.

www.ibtesama.com

وفي كل مرة يزور فيها الرجل الثري القرية في إحدى زياراته الدورية لها، كان جميع أهل القرية يجتمعون في ساحتها للترحيب به؛ فهو الذي يملك جميع منازل القرية وحقولها ومروجها وفوق كل شيء، هو من يملك المياه التي تجري في نهرها الجاري، وهو المالك الذي يؤجر الأراضي للفلاحين؛ لهذا كان سكان القرية يأتون إليه لتقبيل يديه وقدميه إظهارًا لولائهم له، ويرجون الله القدير أن يقيه ويقي أسرته من المرض أو أي غضب سماوي أو أي محنة قد تحل بهم. وكان كل فرد من أفراد القرية يجلب معه حقيبة أو صندوقًا أو إناء شاي أو غيره من المؤن للمنزل الكبير الذي يقع على بعد مسافة قصيرة من القرية. وفي مساء اليوم نفسه، كانوا يُقدمون إليه أطفالًا آخرين.

وعُقد قران ثريا وغوربان بعد فترة وجيزة من عودته من مدينة كرمان في خريف ١٩٦٤، ولهذه المناسبة، قدم مُلّا[١] إلى القرية، وكذلك فرقة موسيقية جوالة.

ارتدى أهل القرية أبهى الملابس، وبدا الرجال جميعهم حليقي الذقون والشوارب، وكذلك تزينت النساء بالحلي البراقة. وفي وقت الغسق، أُوقدت النيران المتوهجة في الساحة الرئيسية حيث عقد الملا مراسم الزواج الدينية، وأُعد لسيد القرية وأسرته مجلس مريح يضم عددًا كبيرًا من البسط والوسائد، وبدأت الاحتفالات عندما حل الليل.

وفي أحد أركان الساحة، جلست ثريا ومن حولها نساء القرية، اللاتي كانت خالتها زهرة بلا شك أكثرهن نشاطًا، فلقد أرادت أن يكون الحفل مثاليًّا وتفننت في تزيين العروس الشابة؛ فهذبت حاجبيها، وأكسبت شفتيها ووجنتيها اللون الوردي، وصبغت شعرها بمسحة من الحناء، ووضعت مستحضر تجميل على أهدابها لتبدو أكثر كثافة، وكذلك قطرات من الكحل حول عينيها، ثم ثبتت حلية متدلية باللون الذهبي والفيروزي على جبهتها. وبعد ذلك، وضعت طلاءً على أظافرها وأهدتها أجمل عباءة نُسجت بخيوط من حرير وتزينها الفضة، لأنها أرادت أن تبدو ابنة أختها أجمل عروس رأتها القرية.

---

[١] الاسم الذي يطلق على رجال الدين في إيران.

www.ibtesama.com

وحسبما تقضي التقاليد غطت الخالة زهرة وجه العروس الشابة بغطاء للوجه ارتدته العروس طوال الحفل لئلا يقع عليها ناظر أي شخص قبل إتمام مراسم الزواج.

وفي تلك الأثناء بلغت مظاهر الاحتفال ذروتها؛ فُذبحت ثلاثة خراف، ودهنت بالزيت ثم وُضعت على أسياخ كانت تلتف ببطء أعلى النيران التي أخذت ترسل شررًا شق طريقه في سماء الليل. وعزف الموسيقيون بآلاتهم، ونهض الرجال واحدًا تلو الآخر للرقص بحركات دائرية بطيئة، بينما وقفت النساء جانبًا في أحد أركان الساحة يصفقن في سعادة. وقُدم الطعام لسيد القرية في أطباق، ولكنه أكل لحم الحمل والأرز بيديه متبعًا تقاليد أهل القرية. واستمر الرقص والغناء حتى وقت متأخر من الليل. وحينما بزغ ضوء الفجر، كانت النيران قد خُمدت، وأوى أهل القرية إلى بيوتهم للنوم، وللمرة الأخيرة نام العروسان كل في بيت والده، وفي اليوم التالي، عقد الملا قرانهما في دار بلدية القرية في حضرة عمدة القرية.

وسأل الملا العريس الشاب ثلاث مرات عما إذا كان يقبل ثريا زوجة له، فلم يجب عليه لمرتين، ثم أجاب بنعم في المرة الثالثة، وبعدها سأل الملا ثريا السؤال نفسه، فأعربت هي أيضًا عن قبولها في المرة الثالثة.

بعدئذ، قبّل العروسان القرآن الذي أُعطي لهما، ووقعا على وثيقة زواجهما، ثم قرأ الملا وثيقة الزواج لهما. وأصر سيد القرية على أن يهدي خادمته السابقة إناءً جميلًا لإعداد الشاي وبساطًا ومصباح زيت ومبلغًا صغيرًا من المال لتهبه كمهر إلى غوربان، إلى جانب المهر الذي حصلت عليه من والديها.

أما غوربان علي — فباستثناء قلادة أهدته أمه إياها وغطاء للموقد من أجل ليالي الشتاء الطويلة وبساط عتيق بالٍ — لم يقدم جوهريًا أي شيء للزواج إلا تعهدًا بأن يعمل ويعيل زوجته وأسرته المستقبلية.

وفي مساء ذاك اليوم، أشرفت الخالة زهرة على نساء القرية أثناء إعدادهن للعروس بعناية لليلة الزواج، لقد أعددن لاستحمامها، وأزلن شعر

www.ibtesama.com

جسدها تمامًا، وغمرنها تمامًا بالعطور. وحينما صار العريس أخيرًا بمفرده مع ثريا، لم تتفوه له بأي شيء. بعدها أطفأ العريس المصباح الوحيد بالبيت، وألقى بنفسه عليها، وباشرها بعنف.

بعد انقضاء عشرة أشهر من زواجهما، أنجبت ثريا حسين علي، ثم أجهضت طفلًا، وبعد عامين، أنجبت حسن علي، ثم فتاتين سُميتا بمريم وليلة، وبعدهما وليد ميت، ثم أنجبت أطفالًا آخرين. وفي عام الثورة، أنجبت آخر أطفالها؛ الصغيرة خوجسته. على مدار أربعة عشر عامًا، أنجبت ثريا تسعة أطفال من بينهم الطفلان اللذان أجهضتهما.

كان غوربان علي بطبيعته كسولًا شأنه شأن والده من قبله، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن دومًا يتحين الفرصة للخطط المشبوهة وتحقيق المكاسب السهلة، وكان يثير اهتمامه أي نشاط يخرج عن إطار القانون. كان صائدًا للأسماك يجور على ملكية غيره وكان لصًّا تافهًا، كلما سنحت له الفرصة. وسمحت له الثورة الإسلامية والتغييرات التي جاءت بها إلى القرية بأن يجعل من نفسه شخصًا ذا شأن.

كان يستقل حافلة القرية، مرة واحدة كل شهر، متجهًا إلى المدينة في مهمة عمل. أي عمل؟ في واقع الأمر، لم تعلم ثريا عنه أي شيء قط، لكنه كان يعود في كل مرة ببضع مئات من الريالات تكفي للوفاء باحتياجات الأسرة الأساسية.

وشيئًا فشيئًا، هجر غوربان علي زوجته، وشاع في القرية أن علاقة تجمعه بامرأة مُطلقة أخوها على اتصال دائم بتجار السوق السوداء بمدينة زاهدان، ودارت شائعات عن ضلوعه في تهريب المجوهرات الثمينة والسجائر الأمريكية والخمر وحتى المخدرات، ولما عُلم أنه كان في الجوار أثناء مشاحنة قُتل فيها رجل بوادي القرية، قدم رجال الشرطة من مدينة كرمان إلى القرية لاستجواب عمدة القرية ثم استجواب غوربان علي، ولكنهم غادروا أصفار الأيدي، وأُمر غوربان بألا تطأ قدماه المدينة مرة أخرى. ومنذ ذلك الحين صار صموتًا، وأكثر عنفًا، وبدأ يضرب زوجته وأطفاله باستمرار، حتى إن ثريا قصدت بيت والدتها ذات مرة وهي تحمل بين ذراعيها أصغر أطفالها ووجهها يدمي بغزارة. ومدة أسبوع رفضت أن تعود إلى البيت. وكانت

www.ibtesama.com

خالتها زهرة آنذاك تذهب لتطهو الطعام وتنظف المنزل لهذا الزوج الثائر، حتى ندم غوربان علي أخيرًا على خطئه وطلب الصفح من والد زوجته.

وبمرور الوقت خطت السنون علاماتها على وجه ثريا، فذوي جمالها، ومع أنها كانت في الثامنة والعشرين من عمرها عند سقوط النظام الإيراني الحاكم القديم وإعلان الجمهورية الإيرانية، فقد بدت أكبر سنًّا بكثير. واختفت آنذاك كل صور الشاه وصور زوجته، وحلت محلها صور لرجال ملتحين يلبسون عمامات تكسو الحدة والقسوة ملامحهم.

في القرية ظل كل شيء على حاله، باستثناء تلك الأنباء التي ذاعت أن نظام الحكم الجديد سمح مجددًا بتعدد الزوجات. عندها، لم يهدر غوربان علي لحظة واحدة من الوقت، فتخلى غوربان عن زوجته، ولم يعد حتى يمسسها. ومن جانبها، لم تَشْك ثريا من هذا الحال الجديد. ولم يعد يتواجد في المنزل إلا نادرًا، وكثيرًا ما كان يختفي في وادي القرية ثلاثة أو أربعة أيام متواصلة. وبازدياد انزواء ثريا، صارت شديدة التحفظ مع الآخرين وكأنها تخجل من عجزها عن الاحتفاظ بزوجها.

قالت ثريا لوالدتها ذات ليلة: «أريد أن أموت. أماه! أريد أن أموت. فلم أعد قادرة على الاحتمال. إنه يضربني، ويهينني، ويضرب الأطفال.»

ولم يكن من السيدة شوكت سوى أن تلزم الصمت؛ إذ لم تدر ما الذي عساها أن تقوله لابنتها، فتقاليد القرية كانت تحظر على آباء وأمهات الزوجات التدخل في شئون أزواج بناتهم. وما زاد الأمر سوءًا هو أن سيطرة الرجال كانت مطلقة؛ فالرجال منذ وقت مضى هم وحدهم الذين يتخذون بمفردهم جميع القرارات. ذلك علاوةً على الشائعات التي دارت في القرية بأن غوربان علي يُكثر من الطواف في شوارع المدينة بدلًا من المكوث في منزل أسرته لأن زوجته زوجة سيئة.

كانت ثريا تشعر بالخجل كلما عبرت ساحة القرية؛ لم يعد أهل القرية يحيونها عند مرورها بهم، وما عادوا يتحدثون إليها إلا قليلًا، هذا إن خاطبوها من الأساس، بل إن البعض تمادى وتحاشى الوجود معها في المكان نفسه. لِمَ يلقون عليها اللوم؟ ما الذنب الذي اقترفته؟ لقد ألقوا عليها

www.ibtesama.com

باللائمة لأنها لم تستطع الاحتفاظ بزوجها مثلما استطاعت سائر نساء القرية، لأنها صارت ذليلة لا عزيزة، لأنها لم تستطع تسوية مشاكلها مع زوجها بدون اللجوء إلى والديها، لأن ابنها كان لصًا كاذبًا لا ينفك عن إثارة المشاكل في القرية. باختصار، لقد ألقوا عليها باللائمة لأنها كانت زوجة سيئة وأمًّا غير جديرة بدورها.

من ناحية أخرى لم يتعاطف معها إلا عدد قليل من صديقاتها، ولكنهن أظهرن هذا التعاطف بتحفظ، ولم يدعونها أبدًا إلى منازلهن.

إزاء هذا التفَّتْ ثريا بعباءة الصمت، ولم تتحدث إلا إلى خالتها زهرة وأصغر أطفالها، وكانت تبكي في هدوء حينما تخلو إلى نفسها، ولا يكون منها سوى الاستكانة تمامًا لضربات زوجها أو ابنها.

ولم يمض وقت طويل حينما حلت بها مأساة أخرى تضاف إلى مآسيها — لقد توفيت والدتها. امتنعت ثريا حينئذٍ عن مغادرة المنزل، ورفضت الطهي أسبوعًا. وفي اليوم السابع، تابعت أداء أنشطتها عندما قدم والدها لزيارتها وأعطاها قلادة والدتها.

قبّلت ثريا القلادة، ثم قبّلت يدي والدها، وبعدها صحبته إلى عتبة المنزل وهمست إليه: «لا تنس يا أبي أنني أحبك.»

وبعدها أغلقت الباب خلفه.

وذات يوم غادر جميع أهل قرية كوبايه منازلهم إحياءً لذكرى يوم «سيزده بدر» حسبما تقضي التقاليد الإيرانية، وباعدوا بينهم وبين بيوتهم بمسافة كبيرة لكي تطهرهم روح طاهرة من بذاءات العام الماضي. فوجئت ثريا التي مكثت في منزلها يومئذٍ بدوي صوت صفق لأحد الأبواب. فقصدت ثريا نافذة المنزل، لتجد غوربان علي يخرج من سيارة أمريكية الصنع مع امرأة، ويتجه معها إلى المنزل، وبعدها سمعت ثريا صوت فتح باب المنزل الأمامي، ثم صوت إغلاقه برفق. واستطاعت أن تسمع أصواتًا مكتومة، لكن الكلمات كانت مسموعة بالكاد. كان الاثنان يضحكان، وبصرف النظر عما كان يقول أحدهما للآخر، بدا أنهما يستمتعان بوقتهما معًا. بعدها أطبق صمت طويل، ففهمت ثريا معناه. فغلبها حينئذٍ الشعور بالخزي

www.ibtesama.com

والعار. كيف سولت له نفسه أن يجلب امرأة مجهولة، إلى منزلها، إلى فراشها، كيف له أن يجلب عاهرة تُشترى ببضع مئات من الريالات في الوقت الذي لا تملك فيه بالكاد إلا ما يكفي من المال لشراء الطعام لأطفالها؟

بعد مرور نصف ساعة، عادا إلى السيارة مرة أخرى واتجها إلى السهل.

ولما خرجت ثريا من مخبئها، كانت تفوح من المنزل رائحة العطر ومساحيق التجميل. وبينما شرعت في ترتيب غرفة النوم، وفيما هي تقوم بذلك، دلفت خالتها زهرة إلى الغرفة، وتبادلت المرأتان النظرات، ثم قالت الخالة العجوز ببساطة: «لقد رأيت كل شيء. لقد مكثت أنا أيضًا في المنزل اليوم ... لا تقولي شيئًا ... أنا هنا إلى جوارك!»

وغادرت زهرة بنفس السرعة التي ظهرت بها.

كانت ثريا تعلم أن غوربان علي يتردد من حين لآخر على بيوت العاهرات في مدينة كرمان؛ لأنه كان ثمة رائحة عطر رخيص كثيرًا ما تفوح من ملابسه عندما يعود إلى المنزل، إلا أنه لم يجلب أيًّا منهن من قبل إلى المنزل قط، ولم تنم امرأة عاهرة في فراشهما قط.

بالمثل فطنت ثريا إلى أن زوجها قد انخرط في أنشطة مشبوهة خارج القرية؛ مستندة إلى سبب بسيط وهو تحسن أحواله المتزايد منذ وقت مضى، وكذلك هي تعلم أن سيد القرية قد اعتُقل. لكن، لِمَ كان زوجها يقود سيارة سيد القرية القديمة الأمريكية الصنع؟ وأين تعلم القيادة؟ ومن الذي علمه إياها؟

كانت ثريا تقضي وقتًا عصيبًا في الإجابة عن هذه الأسئلة، لأنها فعليًّا قطعت كل روابطها بالعالم الخارجي، ولم تسمح لأي شخص بزيارتها في منزلها إلا والدها وكاتمة أسرارها السيدة زهرة وعمدة القرية.

ومتى كان غوربان علي يعود إلى بيته من المدينة كان يتحول إلى مصدر ذعر رهيب: كان ينفجر غاضبًا في وجه أي فرد من عائلته تصادف أن اعترض طريقه، وينهال بالضرب على كل من قاده سوء حظه إلى أن تطوله يده الباطشة. ومع ذلك لا تزال ثريا ساكنة لا تبكي ولا تصرخ، فقد احتملت معاملته السيئة في صمت. وإن بكت، كانت تبكي حينما

www.ibtesama.com

تخلو إلى نفسها، وكانت تحاول جاهدة أن تختبئ حتى تهدأ العاصفة من حولها.

كان صغارها هم فقط من يبكون عندما ينهال عليهم والدهم بالضرب.

لاحظت ثريا أيضًا أن زوجها والملا، الشيخ حسن، كانا كثيرًا ما يطيلان الحديث معًا، وكأن ثمة علاقة غريبة تجمع بينهما. لقد بدا لها أن غوربان تبهره ثروة الشيخ — رجل الدين — وثقافته ونفوذه؛ وأنه يحسده على مكانته والسهولة التي فرض بها نفسه على القرية. ولكن كانت جهود غوربان لمباراة الملا بصورة أو بأخرى مثيرة للشفقة. فلا يزال غوربان يتحدث كشخص ريفي ساذج، ولا تزال ملابسه قذرة غير ملائمة له، ولا تزال لحيته كثيفة؛ إذ إنه قليلًا ما يمضي الوقت في حمام البخار العام بالقرية، وكذلك لا تزال الرائحة الكريهة تنبعث منه على الرغم من العطر الرخيص الذي كان يتعطر به. مع ذلك فطن الشيخ حسن إلى أن غوربان قد يفيده بأكثر من طريقة، وحرص على الوصول إليه متى أمكنه ذلك. فمتى تحدث إلى غوربان علي، كان يُجبر نفسه على استخدام لغة أخرى وألفاظ أبسط وكلمات أكثر شيوعًا. وقبل أن يمضي وقت طويل، صارت ثريا ترى الرجلين يتبادلان المعانقات الحارة، ويربت أحدهما بقوة على ظهر الآخر لدى عناقهما، ويكثران من الضحك وهما يتبادلان بعض الأوراق النقدية أو الأظرف.

أما عن ثريا، فقد أظهر الملا حسن لها كياسة واضحة وملفتة للنظر، لكنها كرهت نظراته الثاقبة إليها، وكانت تقطع الحديث معه كلما حاول أن يبدأ حوارًا معها. وذات يوم دخل منزلها بدون استئذان مسبق، وسألها عما إذا كان بإمكانه المكوث وبدأ في الحديث إليها قائلًا: «سيدة ثريا، أنا هنا بناءً على طلب غوربان علي ....»

وما أكثر الشكوك التي ساورت ثريا، وفي الحقيقة كانت ثريا تتوقع وقوع هذه الحادثة منذ وقت مضى.

بعدئذ أخرج حسن حافظة القرآن من جيبه وبعد أن وضع مصحفه على المنضدة المنخفضة، استطرد قائلًا: «لقد جاءني زوجك يشكو منك. إنه يقول إنك ما عدت تتحدثين إليه، وإنك تهملينه، وإنك قد هجرته.»

www.ibtesama.com

حدقت ثريا فيه بلا حراك ودون أن تخفض عينيها عنه.

فتابع كلامه قائلًا: «إنه زوجك ... وله كل حقوق الزوج، أنت تعلمين هذا الأمر جيدًا، له كل الحقوق. لا يجوز لك أن تحرميه شيئًا. إنه زوج صالح، وعائل أسرة فاضل، يجلب المال لبيته، ويحب أطفاله.»

حينئذ راودت السيدة الشابة رغبة في الابتسام، لكنها أحجمت عنها.

ومع ذلك لم تستطع أن تكبح ابتسامة عريضة ارتسمت على شفتيها تمكنت من إخفائها بطرف حجابها.

قال الشيخ حسن: «يريد غوربان علي التوصل إلى تسوية معك. لقد تناقش معي طويلًا في هذه المسألة وأعتقد أن عرضه عادل جدًّا. إليك ما يريده.»

بعدها تنحنح وعدل من وضع نظارته على أنفه، وعبث بلحيته على نحو يوحي بالدهاء، ثم استطرد قائلًا: «إنه يريد الطلاق، لأنه التقى بامرأة أخرى في المدينة يود أن يتزوجها. وهو لا يملك مالًا يمكنه من إعالة امرأتين، لكنه على استعداد لأن يهبك المنزل، والأطفال، والأثاث، والحقل الصغير لزراعة ما تحتاجينه، ولكنه لن يزيد فوق ذلك ريالًا واحدًا.»

رفع الملا حسن عينيه إلى ثريا وانتظر ردها، ولكن بلا جدوى، فتحدث من جديد قائلًا: «أرى أن هذا العرض عادل جدًّا، لينفصل أحدكما عن الآخر، وسأعد أنا وثيقة الطلاق، وبعدها لن يدين أي منكما للآخر بشيء. سيترك غوربان علي كل شيء لك، وهذا عرض سخي جدًّا، ألا ترين ذلك؟»

لم تجب ثريا من وراء حجابها.

فقال هو: «سيدة ثريا، نحن الاثنان هنا وحدنا، وأنا رجل دين، أنا رسول لك، بإمكانك أن تثقي بي، ما رأيك؟»

تململ الشيخ حسن في جلسته وكأنه يشعر بالحرج، واستطرد قائلًا: «ثمة أمر آخر أود أن أعرضه عليك. وهذا العرض نابع مني أنا وحدي، وليس لغوربان علي علاقة به. حسنًا ما أود أن أعرضه عليك هو ... كيف لي أن أصف الأمر؟»

حينئذ تزايد شعور الرجل بالإحراج، فأخذ يتصبب عرقًا بغزارة، وبدأت أصابعه تطقطق بصوت مرتفع وهو يهز حافظة القرآن التي كانت معه.

www.ibtesama.com

بعدها قال: «ما أعرضه، وما أود حقيقةً أن أقوله هو أنني على استعداد لأن أعولك وأعول أطفالك الفاتنين، فأنت تستحقين هذا. وبالطبع سأراعي ما تقتضيه الآداب وما يضمن لك الاحترام تمامًا؛ سأزورك من حين لآخر، وسنتحدث، ونتعارف أكثر ....»

حينئذ ازدادت مشاعر الشيخ هياجًا حتى إنه لم يستطع البقاء ساكنًا في مقعده فيما تسمرت ثريا في مكانها وهي تقف أمامه.

في تلك اللحظة، برزت الخالة زهرة من الغرفة المجاورة، إذ لم يبصرها الشيخ حسن، واتجهت إلى الشيخ الذي فوجئ تمامًا بوجودها، ووثب واقفًا على قدميه.

قالت الخالة زهرة: «سيد حسن لاجيفاردي أو أيًّا من تكون، لتغادر هذا المنزل قبل أن أخرج وأثير عليك أهل القرية بأكملها. يجب أن تخجل من نفسك! عسى لعنة الله أن تُصب عليك أيها الشيطان! عسى الله أن يهلكك ويهلك نسلك ونسل نسلك! ... أيها الوحش!»

ظهر على الشيخ الاستياء لوهلة، لكنه تمالك نفسه مجددًا، وقال: «لكنك أسأت فهمي يا سيدة زهرة ... لقد أخطأت تقدير نواياي ... فأنا أكن للسيدة ثريا كل الاحترام .... ما الذي جال في ذهنك بحق رب السماء؟»

فأجابته قائلة: «جال في ذهني أنك خسيس، وأن دناءتك تفوق الوصف، وأن زيك وعمامتك كانا لا بد وأن يجعلاك شخصًا فاضلًا، وأنك عار على الكتاب المقدس الذي تحمله ... غادر هذا المنزل حالًا، وإياك أن تطأه قدماك ثانيةً.»

منذ ذلك اليوم عقد الشيخ حسن العزم على الانتقام من ابنة مرتضى رمضاني، لكنه علم أنه سيواجه العقبات ما دامت زهرة هناك تدعم ثريا وتؤازرها.

www.ibtesama.com

الفصل الثاني

بدأ غوربان علي في هجر زوجته بعد الثورة الإيرانية الإسلامية، حينما تجلت آثارها في قرية كوبايه — بعد فترة تأخر كبيرة. فقد جمعته الصداقة بسائق الشاحنة التي تأتي إلى القرية مرة واحدة كل أسبوع. وكان هذا السائق — الذي يُدعى نصر الله — يُحدثه بما يجري في وادي القرية، ويخبره عن مدينة كرمان الضخمة، ومتاجرها، ومقاهيها، وأصدقائه، والبغايا اللاتي يقابلهن المرء هناك، والمال الذي يمكنه أن يجنيه هناك.

ولما كان غوربان علي منبهرًا بكل ما يسمعه، قرر في أحد الأيام الانضمام إلى نصر الله في رحلة عودته بالحافلة إلى المدينة. وبعدها، وفي بادئ الأمر، صار غوربان علي يقصد مدينة كرمان مرة كل شهر ويعود على متن الحافلة إلى القرية في الأسبوع التالي، ثم أصبح يزورها مرة كل أسبوعين مستغلًّا قدوم ورواح الحافلة القديمة ذات الأزيز التي كانت تحمل على متنها عددًا قليلًا من الركاب، بالإضافة إلى الدواجن وأحيانًا إحدى الماشية وكذلك الفواكه والخضراوات الطازجة والطرود المصنفة. وفي مدينة كرمان، كان غوربان علي يبيت أحيانًا لدى نصر الله، أو في محطة الحوافل، أو في الجزء الخلفي، من أحد المقاهي حيث كان يشكل عونًا بالمساعدة في تقديم الشاي أو العصائر إلى الزبائن.

وفي شوارع المدينة ومقاهيها، اكتشف عالمًا مبهجًا ومُسكرًا، وكان يؤدي فيه لشخص أو لآخر مهام توصيل الرسائل والأظرف والطرود، ويحني الرأس ويُرجع القدم إلى الوراء في تحية من عده ذا شأن، إلا أن مظهره القروي ولهجته لم يسمحا له بالامتزاج مع من أراد بشدة أن يباريهم.

www.ibtesama.com

ومع ذلك فتفانيه في العمل وعفويته أكسباه الإعجاب شيئًا فشيئًا، وتغير تمامًا؛ فبدأ يستخدم ألفاظًا لم يعرفها سكان الجبال من قبل، ألفاظًا لا يعرفها إلا قاطنو المدن. لقد تحدث عن الحوالات المصرفية والقروض والاستثمارات. باختصار، أخبر كل من ألقى له السمع أنه يشتغل بالتجارة، لكن المشكلة هي أنه لم يكن هناك من يعلم بالضبط التجارة التي اشتغل بها.

لم تقل ثريا شيئًا في هذا الشأن. وفي مرات عديدة، أتلفت كل من الشرطة المحلية والوطنية ما كان يحمله؛ إذ كانت الأظرف والطرود التي كان يحملها تحوي «بضائع محظورة». ولم يتطرق الحاج إبراهيم، عمدة القرية، في حديثه إلى أكثر من هذه الحوادث، لكن سرعان ما أدرك أهل القرية أن غوربان علي صار منخرطًا في عمليات التهريب الصغيرة، وكان من بين الأنشطة التي يقوم بها تسلم وإخفاء البضائع المسروقة، والمتاجرة في السلع المهربة.

أما ثريا، فلم تسأل غوربان علي عن أنشطته، وفي الحقيقة، هي لم تتوقع قط أن يتحدث إليها عنها.

وذات يوم قدمت سيارة جيب إلى القرية، تحمل ثلاثة من رجال الشرطة الوطنية، أحدهم رقيب والآخران ضابطان، وتحدثوا طويلًا إلى عمدة القرية ثم استجوبوا غوربان علي ووالده وبعدها غادروا القرية. ولم يعلم أحد قط بالحديث الذي دار أثناء الاستجواب، ولكن فطنت ثريا بوجه عام إلى أنه دار عمن يمضي غوربان علي الوقت برفقتهم في المدينة.

وبعد هذا الإجراء الجارح العلني، أصبح غوربان علي أشد قسوة وأكثر عنفًا تجاه أسرته؛ فكان ينهال بالضرب على زوجته والطفل الذي تحمله بين ذراعيها لأتفه الأسباب. فلقد وجهت له الشرطة تحذيرًا رسميًّا يمنعه من مغادرة القرية، كُتب فيه: «إن عُثر عليك في المدينة، تأكد أنك ستمضي الليل في السجن.»

ومجددًا عاود غوربان علي قضاء أيامه في التسكع بشوارع القرية، وأداء أعمال غريبة هنا وهناك من أجل العديد من الأشخاص، والسير ببطء مسافات طويلة في التلال مع أصدقائه القدامى الذين هجرهم خلال الأشهر

www.ibtesama.com

العديدة الماضية، متحينًا الفرصة للعودة إلى المدينة. لقد صارت حياة المدينة تستهويه، وشعر أنه ينتمي إليها. أما بين حدود قرية كوبايه الصغيرة، حيث تخلو الحياة من الأحداث، فقد شعر أنه حبيس، وأنه يختنق.

لقد تعلم الكثير خلال وقت قصير للغاية قضاه في مدينة كرمان. فكان يبهره الذهاب إلى أحد المقاهي أو حتى مجرد الجلوس هناك ومشاهدة الأشخاص والسيارات وهي تمر إلى جواره؛ فقد كان يمر أمامه المئات بل الآلاف من الأشخاص الذين يجهلهم، وأشخاص يتدافعونه ويزيحونه عن طريقهم وهم يهرعون لأداء أعمالهم، فيما قنع هو بالجلوس والانتظار إلى أن يستدعيه أحدهم لأداء مهمة ما من المهام الغريبة، أو التي تثير الشبهة والريبة في كثير من الأحيان. وكل من أراد الوصول إليه كان يستطيع العثور عليه، فقد كان دائمًا متاحًا.

كانت رغبته في العودة إلى المدينة بأسرع ما يمكن تزداد كلما تحدث إلى سكان القرية عن ذكرياته هناك، حتى إنه حكى لهم ذات مرة أن أحد الأشخاص كافأه على خدمته له بالسماح له بلقاء إحدى بنات الهوى؛ وأنه سلك شارعًا صغيرًا هادئا يقع في نهايته بيت هوى تسكنه الكثيرات من الشابات البغايا اللائي ينتظرن الزبائن. وحكى كيف أن من قدم له الخدمة اختار له إحدى هؤلاء البغايا وأنه أخذ يباشرها بوحشية دون أن يتفوه لها بكلمة — بدون حتى أن يتعرف على اسمها، وأقسم بالعودة إلى هذا المكان في أسرع وقت ممكن.

وفي أعقاب الثورة، قُتل الكثيرون في مدينة كرمان وسائر أرجاء المنطقة، وسُويت النزاعات القديمة وبرز التنافس المحلي، وجرى سريعًا الفصل في أحكام الإعدام، وشاعت اتهامات الخيانة وكثُر الهجر، وشُنت حملات التطهير؛ لذا لم يشعر غوربان علي بأن مدينة كرمان صارت آمنة للرجوع إليها إلا في الخريف، بعد ثمانية أشهر من وصول الإمام آية الله الخميني إلى السلطة في طهران؛ فترجل من الحافلة المتجهة إلى المدينة في المحطة الأخيرة قبل بلوغها بدلًا من الميدان الفسيح الذي يقع فيه مسجد الجمعة، مؤثرًا الحيطة.

وهنا، تناهى إلى سمعه صوت يردد: «غوربان علي! غوربان علي!»

فتسلل الخوف إلى نفسه ونظر إلى الجانب الآخر من الشارع؛ فإذا بنديم له من مجالس الشراب لم يستطع تذكر اسمه.

www.ibtesama.com

قال الرجل: «تعال! تعال هنا!»

تردد غوربان علي لوهلة، ثم عبر الشارع، وتصافح الاثنان، وتبادلا بعض عبارات الترحاب ثم قال الرجل: «انظر، هذا هو متجري، أملكه بالكامل. فيما مضى كنت أعمل فيه لدى وغد أدان بالولاء للشاه ولديه عدة محال في المدينة، لكنني شاركت في الثورة؛ فكافأني الإمام، وأنا الآن سيد نفسي. أبيع الفاكهة والخضراوات والمشروبات والحلوى.»

فانتاب غوربان علي الشعور بالذهول.

وقال له الرجل: «تعال. لا تقف هكذا. دعني أقدم لك كوبًا من الشاي، وسنتحدث معًا قليلًا عن التجارة. أنا واثق من أن رجلًا مثلك يمكنه أن يجني الكثير من المال.»

أمضى غوربان علي ثلاثة أيام وثلاث ليال لدى صديقه ذاك — الذي كان يُدعى منصور — فكان يساعده في إعادة تموين متجره، وخدمة الزبائن، وترديد أسعار البضائع بصوت عال للمارة، والمساعدة في ترتيب المكان ليلًا.

وقال منصور له ذات مرة: «ترى هل سبق أن فكرت في أنك قد تحب العمل لدى الإمام؟»

فأجابه غوربان: «بالطبع أود ذلك، لكنني لا أعرف أحدًا هنا.»

فرد منصور قائلًا: «لا عليك، أنا أعرف الجميع، سأساعدك أنا وأصدقائي.»

بعدئذ عرّف منصور غوربان على جار له، والذي عرّفه بدوره على مساعد قسم الشرطة الجديد في ذلك الجزء من المدينة، وبذا وجد غوربان علي نفسه بين عشية وضحاها حارسًا في سجن المدينة المحلي يتقاضى راتبًا ثابتًا، فشعر بأنه حتمًا يحلم.

والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أنه علم في غضون وقت قصير من تسلمه وظيفته الجديدة أن سيد قرية كوبايه الذي اعتقل قبل ذلك بأسابيع قليلة قد أُودع «سجنه».

جلس الأخير مقرفصًا في مؤخرة زنزانته، وكان من الصعب التعرف عليه، فكان مستعدًا للتضحية بأي شيء للفوز بحريته؛ لذا، كلما زاد المبلغ الذي قد يطالب به غوربان علي، زاد ميل الرجل البدين ذي الوضع الحرج

www.ibtesama.com

لدفع هذا المبلغ. وعلى الرغم من أنه لا بأس بكل هذا، لكن هذا لم يضع حلًّا للمشكلة الأساسية، ألا وهي كيفية الوصول إلى ممتلكاته. لقد كان المالك السابق للأراضي في السجن، في حين كانت ممتلكاته وأغراضه في مكان آخر.

أفضى غوربان لمنصور بالأمر؛ فنصحه بتوخي الحذر قائلًا: «لنتروى؛ إن تسرعنا، فسينتبه الناس إلى ما نفعله. المطلوب هنا هو الصبر.»

لكن المشكلة هي أن الصبر ليس من خصال غوربان علي ؛ فقد أراد دومًا كل شيء في الحال.

قال منصور ناصحًا غوربان: «سيد قريتك ليس بالشخص المهم. هو لم يرتكب أي شيء خطير للغاية. قبل محاكمته، ستُجرى محاكمة وعقاب الكثيرين ممن سرقوا الملايين من الريالات وجوعوا الناس وسلبوا نصف المدينة بالاحتيال. لدينا هنا العشرات ممن ينتمون إلى هذه الفئة، والأمر نفسه في سجنين شعبيين آخرين. فقد يهمك ويهم قريتك أمر هذا الرجل، لكنه هنا في المدينة لا يعبأ به أحد بتاتًا. دعه يذوق جزاء عمله أطول وقت ممكن، وسيصبح أكثر تعاونًا في غضون بضعة أشهر.»

وقد كان منصور محقًّا فيما قاله؛ فالمحاكمات وأحكام الإعدام توالت بتتابع سريع بالفعل، ولم يظهر اسم سيد القرية في أي لائحة. ومع مضي الأسابيع، أخذ جسد الرجل البدين يذوي، وذهب غروره، وأدرك أن غوربان علي هو من سيحميه ويشهد لصالحه، لكنه في الوقت نفسه أدرك أنه قد يُجر في أي وقت من زنزانته ليحاكم.

بعد عدة أشهر ظهر اسمه أخيرًا في لائحة تضم أشخاصًا يشتبه في تورطهم في جرائم ضد الشعب ويحتمل أن تصدر أحكام عليهم. ولبعض الوقت، تمكن منصور وغوربان علي من التظاهر بضياع الورقة التي تحمل اسمه دومًا أو وضعها في غير موضعها، وفي إحدى المرات، محيا ببساطة اسمه من الورقة. لكن كان عليهما التحرك بسرعة، لا سيما مع ظهور شخصية جديدة غريبة على مسرح الأحداث عدة أسابيع قليلة؛ وهي رجل لديه على ما يبدو نفوذ وسلطة كبيرة في السجن وبين اللجان الشعبية والقضاة.

زعم هذا الرجل أنه أتى من طهران، وأنه تجمعه معرفة شخصية بالإمام آية الله الخميني الذي أرسله إلى كرمان في مهمة خاصة. ودعاه

www.ibtesama.com

الجميع بالسيد لاجيفاردي، وقد أثبت أيضًا أنه قريب أحد أصحاب المناصب الرفيعة في النظام الحاكم. باختصار، لقد دبر وخطط غوربان علي للأمر ولكن الناس كانوا يرتابون في أمره. للتقرب إلى هذا الرجل ليس لعلاقة صداقة تجمع بينهما وإنما لعلاقة فيها تورط بالاشتراك في عمل ما، كان على غوربان علي اللجوء إلى آلاف الحيل، وإغراقه بالمديح والانحناء له طوال الوقت؛ فقد جمعت لاجيفاردي أيضًا صداقة بمفوض شرطة هذا الجزء من المدينة، والأخير كان بدوره قريبًا لأحد القضاة في محكمة الشعب. لقد كان لدى كل أفراد هذه الزمرة المرموقة رفيعة المقام المفاتيح والمستندات الورقية والأختام الرسمية اللازمة لإصدار الأوراق المزورة الخاصة بسيد القرية؛ وكان من السهل للغاية إضفاء الشرعية على الهبات التي قدمها سيد القرية لحراسه في السجن وخصوصًا غوربان علي.

عندما جاء يوم المحاكمة، مَثل سيد قرية كوبايه السابق أمام القضاة بلا أدنى شعور بالقلق؛ فقد رأى المستفيدين منه في قاعة المحكمة، لكن ما إن سمع كلمات الحكم التالية: «بسم الله، بموجب هذه المحاكمة حُكم عليك بالموت شنقًا قبل غروب شمس اليوم.» حتى خر مغشيًّا عليه.

ووُزعت ثروة سيد القرية بعد وفاته بين معاونيه، وحصل غوربان علي على الحصة الأقل تواضعًا بينهم: فقد حصل على عشرة آلاف ريال نقدًا وسيارة سيد القرية والمنزل الذي عاش فيه بالمدينة، ومنزل والديه في كوبايه وقطعة أرض، وأتيح له استخدام مياه النهر بالقرية مجانًا. منذ تلك اللحظة، بدأ غوربان علي يشعر بأنه قد صار شخصًا ذا شأن حقًّا؛ إذ استُقبل بالتحية أينما ذهب ودُعي إلى تناول الشاي أو الفاكهة كلما سار في شوارع كرمان، وسعى الناس إلى رفقته.

غير أن البعض اختار تجنبه. فبينما لم يجد غوربان علي العمل كموظف ذي راتب ثابت في السجن والنوم فيه أمرًا مزعجًا، أزعج هذا الأمر آخرين؛ فبقدر ما أمكنه أن يساعد البعض، أمكنه أيضًا وفق أهوائه أن يزج بكل من شاء في السجن وقتما شاء.

استمر غوربان علي في ممارسة أنشطته المريبة، مشاركًا أرباحها مع شركائه الأعلى مكانةً، أو كان يقتنصها بالكامل في غفلة منهم في بعض

www.ibtesama.com

الأحيان. وكان موضع ترحاب دائم في بيوت الهوى. باختصار، أصبح شخصًا شهيرًا في ذلك الجزء من المدينة؛ في المنطقة المجاورة لمسجد الجمعة.

من ثم، لم يكن ليعود إلى قرية كوبايه طبعًا إلا شخصًا ذا شأن؛ فتحدث هناك بلا آخر عن بطولاته، وأنشطته التجارية في المدينة.

وفي هذا الوقت تقريبًا، كانت الحكومة الإيرانية قد أعلنت أن أهل القرى سيتملكون بيوتهم من ذلك الوقت فصاعدًا، فأصبحت جميع الأراضي المجاورة للبيوت منذ تلك اللحظة جزءًا من مزرعة كبيرة ملك للدولة وأُتيح للجميع استخدام مياه الأنهار مجانًا.

وهناك في قرية كوبايه، أخبر غوربان علي الجميع أنه مدير السجن، الذي لديه بالفعل مفاتيح جميع زنزاناته ومكاتبه، ولما كان على معرفة وثيقة بمواضع الأختام والأوراق الرسمية المستخدمة فيه، وصل إلى حد أن حرر بعض السجناء خلسة نظير مبالغ نقدية فورية هائلة.

ولما كان لكل شخص في مدينة كرمان قريب واحد على الأقل محتجز خلف قضبان السجن، كان سيحتاج في يوم ما إلى مساعدة غوربان علي وخدماته. وفتح غوربان علي حسابًا مصرفيًّا سرعان ما زاد رصيده بقفزات سريعة، واستأجر أيضًا صندوق أمانات كبيرًا آمنًا لكي يحتفظ فيه بمفاتيح الممتلكات العديدة التي منحه إياها السجناء، وكذلك الحوالات المصرفية وصكوك الملكية وأوراق التأمين والأسهم والسندات والمجوهرات إلى جانب الكثير خلاف ذلك.

وبعد ذلك، وقع غوربان علي في الحب.

لقد وقع لأول مرة في حياته في غرام امرأة، وليست أي امرأة، هي لم تكن قروية أو بائعة بأحد المحال، وبالقطع ليست من بنات الهوى اللائي تلذذ بهن.

كلا، لقد أغرم بفتاة لمحها أثناء زيارتها لوالدها في السجن. فبدت جميلة وراء عباءتها؛ كان وجهها شاحبًا للغاية، وعيناها خضراوان وشفتاها رقيقتان، افتتن بها غوربان في الحال. لكن كيف يستطيع التقرب إليها؟ وكم يبلغ عمرها؟ يحتمل أنها كانت في الخامسة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها. لقد كانت تأتي مرتين أسبوعيًّا لتنتظر في صف طويل تحت الشمس أمام بوابة السجن الرئيسية مع زوجات وبنات السجناء.

www.ibtesama.com

وبعدما سارع غوربان علي بالسؤال عنها، علم أن والدها كان طبيبًا لدائرة كبيرة من كبار أثرياء مدينة كرمان قبل الثورة، وأنه جاهر كثيرًا بتأييد المَلكيّة. ولأنه تمتع بشهرة كبيرة ومكانة مرموقة، تركته سلطات الثورة الإيرانية وشأنه بعض الوقت، لأنها احتاجت إلى خبراته الطبية، ثم صدر ذات يوم أمر من العاصمة باعتقاله، من هنا تعرف غوربان على مِهرِي.

لقد شغلت تفكيره كل ليلة قبل أن يخلد إلى النوم وكلما تردد على بيوت الهوى في جادة دارفاسيه بمدينة زاهدان، وتخيل نفسه يضمها بين ذراعيه ويلاطفها ويتحدث إليها ويتنسم عطرها، وحدثته نفسه بأنه إن حظي بزوجة مثلها فسيكون على رؤسائه على الأرجح ترقيته إلى منصب أكثر أهمية، وربما يصبح أيضًا مدير السجن.

ومنذ ذلك الوقت، لم يستطع غوربان علي أن يتصور كيف أمكنه أن يمضي كل هذه السنوات من حياته في كوبايه، بل إنه تحرج من الاعتراف لزملائه الحراس أن والده عمل راعيًا للغنم، وآثر أن يخبرهم بأنه صاحب متجر ويملك أيضًا قطيعًا من الأغنام. وفي الحقيقة، هذا كان صحيحًا؛ فبعدما توفي سيد القرية، وزعت أملاكه وأغراضه ومُنح والد غوربان علي — الذي يُدعى لطف الله — كشكًا في أحد الشوارع وعددًا من النعاج.

في آخر الأمر، لم يعد غوربان علي يطيق ثريا؛ لم يعد راغبًا في العيش مع تلك المرأة الصامتة المستكينة التي بدا عليها الكبر قبل الأوان، والتي كانت — وهذا الأدهى — بريئةً من كل ذنب ولا لوم عليها.

لقد حاول إذلالها بإخبار أصدقائه من الطفولة عن مغامراته الجنسية في المدينة، وحاول إثارة غيرتها بإخبارها عن كل السيارات التي قادها، وحاول تعذيبها بوصف فتيات المدينة الجميلات اليافعات اللاتي ارتدين الملابس الأنيقة وتطيبن بالعطور التي تفوح منها رائحة الزهر، لكن ثريا لم تقل شيئًا وبدا وكأنها لا تسمع شيئًا.

وذات مساء أضاف غوربان علي قائلًا: «ليس من المستبعد أن أتزوج مجددًا، وأن أنجب المزيد من الأطفال، أريدهم أن يلتحقوا بأفضل المدارس. أعرف مدرسة في كرمان ... أعتقد أنها المدرسة التي أود أن يلتحقوا بها.»

www.ibtesama.com

ولا تزال زوجته الشابة التي عكفت على رتق ثقوب بعض الجوارب على ضوء شمعة وحيدة تحجم عن إبداء أي ردة فعل.

فقال حسين علي ابنهما الأكبر: «كيف تبدو هذه المرأة يا أبي؟ صفها لنا.»

فنظر غوربان علي إلى زوجته وهي عاكفة على العمل واستطرد في الحديث وهو يسحب نفسًا عميقًا من نارجيلته: «إنها فتية، جميلة وكأنها لوحة فنية صغيرة، وهي أيضًا مثقفة جدًّا، والدها طبيب، وكلانا معجب بالآخر.»

فقال حسين علي: «هل تحدثت إليها بالفعل؟»

فأجابه غوربان: «مرات عديدة ... إنني في الواقع أتحدث إليها في كل مرة تزور فيها السجن. فأنا أسمح لها بالوقوف في أول صف الانتظار، فهو صف طويل جدًّا، وهي تشعر بالامتنان الشديد تجاهي.»

كان غوربان علي يكذب في ذلك؛ فهو لم يتفوه قط بكلمة إلى الفتاة حتى تلك اللحظة، لكنه كان على استعداد لفعل أي شيء لاستفزاز زوجته، وقد استخدم كل الحيل والوسائل التي اهتدى إليها عقله ليبعثها على فعل أو قول شيء يمكنه أن يستخدمه ضدها.

لقد قاد سيارته من المدينة إلى القرية برفقة امرأة اصطحبها من بيت الهوى الذي تردد عليه في كرمان وألبسها نظارة شمسية، ودار بسيارته حول ميدان القرية ثلاث مرات، وتوقف أمام النافورة وحيا بعضًا من معارفه ليتأكد من التفات الأنظار إليه، ثم غادر بسيارته مخلفًا سحابةً كبيرةً من الغبار. مع هذا لم يعقب أحد من أهل القرية على زياراته تلك؛ فقد خشي جميع أهل القرية أن تكون لديه صلات سياسية بالفعل في المدينة قد تُستغل ضد القرية في يوم من الأيام، إلا أن الآراء ظلت تُجمع على أنه عديم النفع وخشاه الجميع خشية البلاء.

وأكثر من خشي غوربان علي هو الشيخ حسن الذي لم يفد إلى القرية إلا منذ وقت قريب؛ فقد رأى أن غوربان علي قد ينفجر غاضبًا في أي لحظة، وأنه شخص لا يمكن التنبؤ بأفعاله، وكذلك تخوف من أن ينقلب عليه في أي لحظة من اللحظات؛ ففي تلك الفترة العصيبة، بدا ببساطة أن الناس

www.ibtesama.com

يختفون من على سطح الأرض، حتى إنه قيل إن الملا نفسه قد اضطر إلى مغادرة كرمان على وجه السرعة في ظل ظروف ظلت غامضة إلى حد ما. لقد بدا أنه غادر إثر لقاء مع قاضٍ إسلامي لم يره أحد منذ تلك اللحظة.

لذا كان من الأفضل الإبقاء على علاقة طيبة بغوربان علي.

في شتاء إحدى السنوات، توفيت فيروزة، صديقة ثريا من الطفولة، بسبب داء ذات الرئة تاركةً طفلين وزوجًا يُدعى هاشم. وكان هاشم شابًّا جادًّا ومُجدًا يعمل حدادًا، وهو ابن عم غوربان علي. وشأنه شأن أبيه من قبله، كان يصلح كل شيء في كوبايه من سرج الفرس إلى الدراجات إلى أواني الطهي إلى البكرات المستخدمة في رفع المياه من الآبار وحتى أواني الشاي.

وبعد وفاة زوجة هاشم، اضطربت حياته وعانى حزنًا شديدًا؛ ففيروزة كانت ربة منزل مثالية؛ فكل ما احتوى عليه منزلها كان نظيفًا ومرتبًا، ولكن زوجها الأب الشاب — الذي فقد والدته في سن صغيرة جدًّا ولم تكن له أخت قط — لم يكن قادرًا على الطهي والعناية بالأطفال؛ لذا طلب عمدة القرية والخالة زهرة وأفراد آخرون من أهل القرية من ثريا أن تساعده؛ ومن جانبها، كانت سعيدة بهذه الخدمة.

ولما توفر لدى ثريا الوقت الكافي لمساعدة هاشم، أجمع أهل القرية على أن تذهب إلى بيته مرتين يوميًّا لتساعده في طهي الطعام وتدبير شئون المنزل.

وكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها غوربان علي ليتخلص منها؛ ففي كل مرة عاد فيها إلى القرية، كان يتتبعها بتأنٍ، ويتلصص عليها ويتقصى أثرها ليتأكد أنها وقعت في الفخ الذي نصبه لها.

ولم تنتبه ثريا على الإطلاق إلى المؤامرة التي أعدها زوجها لها، واستمرت في زيارة هاشم مرتين يوميًّا للعناية بأطفاله دون الإهمال في العناية بمنزلها وأطفالها.

وشيئًا فشيئًا، بدأت الشائعات تدور عن ثريا في كل أرجاء القرية.

www.ibtesama.com

الفصل الثالث

فيما كان الشيخ حسن يسير ببطء متجهًا إلى بيت عمدة القرية، أخذ يسترجع أحداث السنين الماضية التي قادت حياته إلى منحى جديد تمامًا، لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة وسار على نحو غير متوقع تمامًا.

لقد انقلب عالم الشيخ حسن رأسًا على عقب بعد عزل الشاه. فجأة سيطر الناس في الشوارع على الحكم، وأُخليت السجون من السجناء بين عشية وضحاها، وجاب الغوغاء شوارع العاصمة متعطشين للانتقام والظفر بالحرية، وساد الغضب الشديد والفوضى، وقصد رعاع المناطق الجنوبية من المدينة مناطقها الشمالية، حيث تقع الفيلات الجميلة والفنادق الكبرى والمطاعم الفاخرة.

وفي سجن باغ شاه العسكري الذي اعتقل فيه حسن لاجيفاردي، سمع حسن صياح الحشود ومعمعة القتال بين المتمردين والقوات العسكرية التي كانت لا تزال تدين بالولاء للشاه. فعلى حين غرة، حاصرت الحشود السجن واجتاحته، وأبصر حسن من نافذة زنزانته جثتي اثنين من الجنود ممددتين على أرض فناء السجن المغطاة بالثلوج، تبدوان كنقطتين داكنتين على خلفية بيضاء.

وسمع أصوات صلصلة المفاتيح، وصرير مفصلات أبواب الزنزانات عند فتحها وأصوات بعض النعال وهي تدق الأرض، ثم اقتحم زنزانته ثلاثة أشخاص يحملون في أيديهم رشاشات.

صاح أحدهم بصوت يشبه النباح: «كم عددكم هنا؟»

فأجابه أحد السجناء: «خمسة.»

www.ibtesama.com

صاح الرجل نفسه بصوت هادر: «اصطفوا أمامي بسرعة.»

بعد ذلك، خطا هذا الرجل ثلاث خطوات إلى الأمام وأخذ يتفرس ملامح السجناء.

سألهم: «أيكم يقرأ ويكتب؟»

فرفع ثلاثة من السجناء الخمس أياديهم.

– «أيكم يحمل شهادة تعليم ثانوي؟ هل منكم من حظي بتعليم جامعي؟»

فأجابه حسن بنعم.

– «وماذا تعمل بعلمك بما أنك بلغت هذه الدرجة العلمية؟ أقصدك أنت أيها المسن. هل أنت معلم؟»

– «لا.»

فقال الرجل رافعًا مدفعه الرشاش بضعة سنتيمترات في اتجاه أفقي: «تقصد لا يا سيدي!»

قال حسن: «لا يا سيدي، ولكنني أحمل شهادة تسمح لي بالتدريس، وقد مارست مهنة التدريس فترة قصيرة.»

– «هل تتحدث أي لغة أجنبية؟»

– «أتحدث التركية والقليل من العربية وأعرف قدرًا يسيرًا من اللغة الإنجليزية، إلا أنني لا أدعي الطلاقة فيها.»

– «كم عمرك؟»

– «ثلاثة وخمسون عامًا يا سيدي.»

خطا الرجل الذي يحمل المدفع الرشاش خطوة نحوه حتى صار يبعد عنه سنتيمترات قليلة.

سأله: «حسنًا، وما الذي أتى بك إلى هنا؟ هل تعمل لدى جهاز السافاك؟»

«كلا يا سيدي، لقد أُرسلت إلى هنا خطأً. أقسم لك.»

فانفجر الرجل ضاحكًا ثم قال: «كلكم تقولون الشيء نفسه ... أيها الفاشيون الجبناء. حسنًا، سنرى من يصدق القول. في غضون لحظة، سألقي نظرة على ملفات السجن عنك، وإن كنت تكذب، فستواجه ورطةً كبيرة.»

www.ibtesama.com

ومع هذه الكلمات ضرب الرجلُ حسنًا بمؤخرة بندقيته أسفل ظهره، ليدفعه إلى السير عبر رواق السجن. وبعد برهة، وجد حسن نفسه في غرفة كبيرة مضاءة بضوء النيون تمتلئ بالسجناء.

صاح صوت هادر: «اجلسوا جميعًا وأطبقوا أفواهكم.»

بعدها، انقضى الصباح بأكمله في استدعاء العشرات واستجوابهم، بل وضربهم إن لم تكن إجاباتهم مقنعة، ثم إعادتهم إلى زنزاناتهم. بعد ذلك، أتى دور حسن الذي كان منهكًا ولم يتناول أي طعام منذ مساء اليوم السابق.

نودي اسمه: «لاجيفاردي ... حسن لاجيفاردي.»

فنهض على قدميه قائلًا: «هذا أنا يا سيدي.» واقترب من منصة مرتفعة جلس عليها ثلاثة رجال مسلحين، كل منهم يرتدي بزة عسكرية ووشاحًا فلسطينيًّا حول عنقه.

قال أحدهم: «أنت صاحب الملف رقم ٥٨/٧٨٦٥. أنت متهم بتقديم أوراق مزورة والنصب والاحتيال والتزوير، والاختلاس، والإفلاس التدليسي، وإصدار شيكات بدون رصيد للتغطية على الجرائم آنفة الذكر، ومقاومة الاعتقال، وجريمة كشف العورة ....»

فنظر القضاة بعضهم إلى بعض.

وقال أحدهم: «لا بأس بهذه الجرائم على شخص واحد! أترتكب كل هذا بمفردك؟!»

فقال حسن: «أقسم لكم أيها السادة أنني لم أقترف أيًّا من هذه الأشياء. لقد أخبرت القاضي السابق بذلك، لكنه لم يصدقني.»

– «كم لبثت هنا؟»

– «هنا؟ في سجن باغ شاه؟ لم أمكث إلا عشرة أيام، لكنني أمضيت سبعة أشهر في سجن غسر قبل ذلك.»

– «أتعني أن من أصدر الحكم عليك هو أحد قضاة الشاه المعزول.»

– «هذا صحيح يا سيدي.»

– «ولم علينا أن نصدقك؟»

– «لأن كل شيء مكتوب، هناك، في ملفي. لقد وقعت عليه ودونت تاريخه.»

www.ibtesama.com

تهامس القضاة الثلاث ثم قال من يتوسطهم: «هل تود العمل لدينا؟»

فسألهم حسن مذهولًا من هذا العرض: «ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟»

أجابه أحد القضاة: «هل توه أن تعمل لدى الجمهورية الجديدة التي نسعى إلى تأسيسها، بمساعدتنا في العثور على أنصار النظام الملكي أينما كانوا للتخلص منهم؟»

– «بالطبع، بالطبع أود ذلك ... في الواقع، يمكنني أن أخبركم أن زنزانتي تضم اثنين منهم ... بل ربما ثلاثة.»

بذا بدأ حسن لاجيفاردي مسارًا مهنيًّا جديدًا، ترقى فيه في المناصب سريعًا من كاتب، إلى مترجم فوري، إلى مخبر للشرطة الإسلامية الجديدة، إلى عميل سري للشرطة، إلى العمل مساعدًا للجلاد، ثم إلى متحدث باسم النائب العام للثورة، وأخيرًا وليس آخرًا ممثلًا لآية الله الخميني نفسه في قرية تقع في شمال البلاد. كل هذا وقع في غضون عامين.

ونجح حسن في إخفاء أي أثر للملفات التي تجعله عرضة للشبهة، والتي أشارت إلى تورطه في الجرائم، وأوجد ملفات مزورة جديدة خالية من أي جرائم. وعلى الرغم من أنه صدرت أحكام بحقه عدة مرات بتهمة الاختلاس وارتكاب بعض المخالفات، محا كل آثار ماضيه دون أن يتخلى عن هويته القديمة، وغيّر مظهره تمامًا؛ فتعود ارتداء عمامة ورداء طويل ومعطف خفيف على كتفيه وصندل مصنوع من خيوط القنب، وحمل في يديه مصحفًا ومسبحة، وارتدى نظارة ملونة تستقر أعلى قصبة أنفه — ومنحته كل هذه الأشياء مظهر الأستاذ المثقف.

وحتى هذه المرحلة من حياته كان حسن أعزب، لكنه بعدئذ تطلع إلى الزواج، وليس إلى الزواج فحسب، وإنما تطلع إلى الزيجة التي تناسبه بما أنه بلغ مكانة رفيعة جديدة؛ فاصطفى أرملة شابة ثرية تملك منزلًا ضخمًا يطل على البحر ومزارع شاي وأرز شاسعة، وزود نفسه بسيارة وسائق، وارتدى رداءً ذا طابع ديني أكثر أناقة، واقتنى مصحفًا مزخرفًا بماء الذهب تزينه بعض الأحجار الكريمة. عاش حسن آنذاك حياة رغدة جديدة كانت ستستمر إلى الأبد لولا أن عرج عليه ذات يوم رفيق شيعي من الوجهاء رفيعي المقام لكي يبدي له الاحترام والتقدير. فشعر الزائر

www.ibtesama.com

العابر بالاندهاش، وهالته حياة الدعة والسعة التي أحاط بها حسن نفسه، الأمر الذي لم يتلاءم تمامًا مع مبادئ الثورة الإسلامية الدينية. كان حسن الرجل الوحيد في منزل فسيح لم يعش فيه فحسب مع زوجته وابنتيها، وإنما أيضًا مع حماته، وخادمتين، وجار كان يعتني بحديقته.

عندما دلف الشيعي الوجيه إلى منزل حسن، وجده ممددًا على أرجوحة شبكية تجاورها فتاتان تستعينان بغصني نخل لجلب الهواء ناحيته؛ فما لبث أن احتد الرجلان في النقاش. وبعد مرور شهر على هذه الحادثة، جُرد حسن — ممثل آية الله الخميني — من مناصبه، وجرى الاستحواذ السريع على ممتلكاته. ونظرًا لأنه لم يملك رسميًّا أي شيء، استطاع بسهولة أن يتسلل إلى خارج القرية صباح أحد الأيام متظاهرًا بقيامه بزيارة مدينة مجاورة. وفي الواقع، كان قد سلب حينذاك أغراض زوجته لدى تطليقها، فجمع أقراطها وخواتمها وقلاداتها وأسوارها وحليها الذهبية وأموالها النقدية ووضعها في كيس، ثم ركب دون أن يواجه أي مشاكل على متن حافلة على وشك الاتجاه إلى مدينة جالوس.

كان حسن لاجيفاردي منحرف جنسيًّا، فبعدما تأكد للشرطة في عهد الشاه أنه مولع ولعًا شاذًا ليس بالفتيات الصغيرات اللاتي يدرُسن في فصوله فحسب وإنما بالصبية أيضًا، فُصل من العمل في عدة مدارس مختلفة، وفي نهاية الأمر منعته وزارة التربية والتعليم من التدريس تمامًا؛ فعاش على حد الكفاف، ونام حيثما استطاع، لذا أُلقي القبض عليه وحُكم عليه بالسجن قبل اندلاع الثورة بعدة أشهر.

وبعدما عاش عامين على شاطئ بحر قزوين، فر إلى جنوب البلاد متحاشيًا المرور بمدينة قم المقدسة.

بعدها عاش على مدار العامين التاليين في مدينة يزد، وهي مدينة زرادشتية اعتنق أهلها الإسلام، وتعد أيضًا معبرًا تجاريًّا يقع على أطراف الصحراء، الأمر الذي وجده حسن مناسبًا إذ إن أكثر ما حرص عليه هو تحاشي لفت الأنظار إليه إلى أن تنسى السلطات الإيرانية أمره.

وقام لبعض الوقت بأعمال مختلفة في «مسجد الوقت والساعة»، ثم عمل مرشدًا في ضريح شمس الدين قبل أن يتزوج مجددًا، وهذه المرة تزوج من أرملة رجل أُعدم لمناصرته النظام الملكي القديم.

www.ibtesama.com

وفي تلك المدينة المقدسة المفعمة بالحياة، آثر حسن أن يواصل حياته مواطنًا عاديًّا حسبما كان ينبغي له دائمًا، وأن يدع زوجته توفر له كل احتياجاته. وكان حسن سيحيا هكذا إلى الأبد، لولا أن تعرف عليه في أحد الأيام سجين سابق من سجن غسر، تشارك معه في واقع الأمر إحدى الزنزانات بضعة أشهر.

ولما كان جميع أهل هذه القرى الريفية الصغيرة بعضهم على علم بأحوال البعض، قبل أن تغرب شمس ذلك اليوم علم الجميع في المنطقة التي يقطن فيها لاجيفاردي أنه كان يعرف ذلك الرجل في السجن، وأن هذين الرجلين اعتقلا بتهمة الاحتيال، وأنه لم يُطلق سراحهما إلا بفضل الثورة.

حينئذ وقع الطلاق في حياة لاجيفاردي للمرة الثانية (وحقق لنفسه قدرًا من الثراء مرة أخرى بسرقة مبلغ بسيط من خزينة زوجته السابقة)، ثم توغل أكثر في جنوب البلاد، دون أن يضع نصب عينيه وجهة محددة سوى أن ينأى بنفسه قدر الإمكان عن ماضيه.

وذات مساء بلغ مدينة كرمان حاملًا في يده حقيبة تمتلئ بملابسه وتحوي مصحفًا والقليل من المجوهرات، وعمل من جديد مرشدًا — هذه المرة في قلعة القبة الخضراء ومسجد باهينار — ثم حصل على وظيفة معلم ذات راتب أعلى في مدرسة سعدات بالقطاع الشرقي من المدينة، حيث درّس النصوص المقدسة وسيرة النبي وأسرته. لقد تراءى له خلال تلك الفترة الضوء الذي يجب أن يسترشد به، واكتشف الوظيفة التي عليه أن يعمل بها. ولما كان ملمًّا إلمامًا سطحيًّا باللغة العربية، حفظ آيات القرآن عن ظهر قلب، وقرأ بنهم الصحف والمجلات الإسلامية، وتعلم التعبيرات والألفاظ التي استخدمها أهل التقوى الذين جهل إلى تلك اللحظة كل شيء عنهم تمامًا. وعلى الرغم من أنه ظل رجلًا علمانيًّا، فقد شعر شعورًا لا يقاوم أنه صار خليفة للنبي في تلك المنطقة.

في ذلك الوقت، أقام حسن في غرفة مؤجرة بنزل خاص، وكان يتناول الطعام مع الأسرة التي كانت تملك هذا النزل، وأعطى أيضًا لابنها الأصغر دروسًا خاصة. وكان شعره الأشيب ولحيته المهذبة وهيئته المهيبة — إذ كان رجلًا طويلًا — تمنحه المظهر الجاد الذي طمح إليه، ولكن خلف نظارته الملونة، ظل حسن دائمًا يشاهد وينتظر ويتربص مثل الطائر الجارح.

www.ibtesama.com

نأى حسن بنفسه عن العاصمة ومحاكم الثوار فيها، وبذل قصارى جهده يومًا تلو الآخر لكي يترك انطباعًا جيدًا في نفوس من عاش بينهم، وسعى كل السعي إلى الفوز بحظوة إمام مسجد الجمعة الذي تردد عليه بانتظام.

فالمسجد كان المركز الذي تعقد فيه جميع الأعمال وتتم فيه كل التسويات في المدينة، فكل شيء حُسم هناك بجوار النافورة التي تتوسط فناءه، في ساعات محددة بين انعقاد الصلاة وتلك التي تتلوها، وبين الخطب الثلاثة المقامة فيه: كأن يتم تقديم العرائض إلى السلطات، وإبرام صفقات رهن الممتلكات وتقديم شكاوى الطلاق العاجلة، وكل شيء كان من الممكن بيعه أو شراؤه أو تأجيره هناك.

ومع تناول كوب الشاي الرابع سوف يتفضل أحدهم بالاستماع إليك، بينما ينتقل مظروف مليء ببعض النقود خلسة من يد إلى أخرى إلى أن يستقر في مكانه الأخير وسط طيات ثوب رجل الدين.

وكان لحسن باع طويل في التذلل والتحايل، إذ استخدم كليهما في الماضي أحيانًا مع مديري المدارس التي درّس فيها، وذوي السلطة في نظام الحكم السابق، وكذلك استخدمهما منذ وقت قريب مع حراسه في السجن. ومما لا شك فيه أيضًا أنه كان بارعًا في المديح.

شيئًا فشيئًا استطاع أن يحوز ثقة من حوله حتى وجد نفسه في غضون وقت قصير من يتخذ المبادرة أو من يضطلع بالفصل في بعض المسائل.

علم حسن كيف يجعل نفسه شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه، وكانت مكافأته الكبرى عن الخدمات التي يقدمها للآخرين هي أن يدعوه إمام المسجد إلى تناول العشاء. ولما سمع البسطاء بعلاقاته أو عرفوا بها، توسلوا إليه أن يتوسط لهم إما لدى السلطات السياسية أو كبار رجال الدين، ومن ثم بدأ في جني أول مكاسبه؛ بالعمل وسيطًا.

وفي وقت قصير تضاعفت نقوده، على الرغم من أنها كانت أقل بكثير مما جناه أصحاب النفوذ الحقيقي الذين ترددوا على مسجد المدينة أو قصر محافظها، لكن عرف حسن كيف يتصيد الفرص. ولما كان شديد الارتياب، شأنه شأن الكثيرين ممن تسلقوا ببطء وحذر درج السلم الاجتماعي، واحدة

www.ibtesama.com

تلو الأخرى، لم يثق بالمصارف وآثر أن يحتفظ بأمواله بنفسه. ولما أصبحت لفافات النقود الورقية بحوزته ثقيلة جدًّا، أبدلها بعملات ذهبية، وأنفق مبلغًا ضئيلًا تافهًا لشراء حزام لحفظ المال احتوى على عدة أجزاء حشاها بما نهبه من نقود، كان يتم إغلاقها بإحكام بالضغط عليها، ولم ينزع هذا الحزام عنه قط متى قصد الحمامات العامة، ولا حتى عندما كان يخلد إلى النوم.

وعندما جاء رئيس البرلمان الإيراني إلى مدينة كرمان لزيارة أبناء البلدة التي ولد فيها، حرص حسن أيضًا على الظهور والبروز دومًا أمامه؛ فبعدما استمرت المهرجانات الاحتفالية بالمدينة ثلاثة أيام، طلب رئيس البرلمان مقابلة عدد من شخصيات المدينة البارزة التي خدمت الثورة والإمام آية الله الخميني. من هنا وجد حسن نفسه في غرفة رئيسية مزدانة بألواح خشبية بمقر الشرطة الرئيسي مع مئات قليلة من الزعماء المدنيين والدينيين الآخرين من صفوة أهل المدينة الذين لم يكن يعرف أيًّا منهم.

عندما حان وقت تقديم حسن إلى رئيس البرلمان، تحدث الإمام السابق لمسجد الجمعة لرئيس البرلمان بالكلمات الآتية عن حسن: «اسمح لي أن أقدم لك حسن لاجيفاردي، هو رجل تقي أمين يتمتع بالنزاهة، وأحد أعضاء المجتمع البارزين، ومعلم متميز.»

فابتسم رئيس البرلمان لحسن وقال له: «تهانيّ على جهودك الطيبة، عسى أن تستمر، أنت مثال جيد لشبابنا، وأطفالنا بحاجة إلى معلمين مثلك.»

فأغدق حسن عليه بالشكر وانحنى له احترامًا وهو يتلعثم قائلًا: «أنا أبذل قصارى جهدي يا صاحب السعادة ... وأرجو الله وإمامنا الحبيب أن يعينانى.»

ولما عدل حسن قامته، كان رئيس البرلمان قد غادر بالفعل. والتقطت صور لهذه المناسبة، واشترى حسن العشرات منها في اليوم التالي لأنها قد تكون ذات نفع يومًا ما، وشعر بالرضا عن نفسه آنذاك على نحو لم يشعر به من قبل.

منذ تلك اللحظة، دُعي إلى جميع مسيرات التظاهر والاحتفالات الرسمية، وصادقه عمدة المدينة وأوكله عددًا من المهام. لكن كيف يمكن لمحتال — حتى

www.ibtesama.com

وإن كان قد تاب واهتدى — ألا تغلبه الفتنة عندما توضع بين يديه أوراق وأختام رسمية وكذلك سيارة رسمية، وتتاح له معرفة الأوضاع المالية للمدينة معرفة دقيقة؟

ومع أن حسن استطاع أن ينتصر على إغراءات نفسه بعض الوقت، ففي نهاية الأمر انهار عزمه على الاستقامة التي تحلى بها مؤخرًا — والتي كانت، لا تزال ضعيفة في مهدها — وذلك أمام من رجوه أن يساعدهم وأبدوا استعدادًا لمكافأته بالمال نظير كل خدمة يؤديها إليهم. ومنذ ذلك الحين بدأ في توزيع الحظوات والمزايا بصورة غير قانونية بارتياح يشوبه الارتباك.

هكذا سار الحال إلى أن وقع في الخطأ يومًا ما؛ فسمح ببناء منزل على أرض خالية استحوذ عليها لنفسه حينما لم يبد أن أحدًا يملكها، وجنى من هذه الصفقة مبلغًا هائلًا من المال. وكان كل شيء سيسير حسبما خطط له لولا سكرتيرة عمدة المدينة التي أخبرته بعدها بأيام قليلة أن الأرض الخالية التي زعم أنها ليست ملكًا لأحد كانت في الواقع ملكًا لعائلتها.

قالت السكرتيرة له: «لقد بعت شيئًا لا تملكه.»

فأجابها: «هذه الأرض الخالية بيعت لي الشهر الماضي، وأنا بعتها بعد ذلك بوقت قصير إلى مالكها الحالي.»

فقالت له: «كل أوراقك مزورة. من الواضح أنك من صاغها.»

لم يستغرق التحقيق في تلك المسألة وقتًا طويلًا، وعلى أثره ذاعت فضيحة هائلة. وسرعان ما أدت إلى القبض على حسن والزج به في السجن حيث تُرك هناك أسبوعين وهو يستشيط قلقًا وغضبًا، إلى أن استدعاه النائب العام الأول للجمهورية الإسلامية في المنطقة إلى مكتبه.

وهناك قال له النائب العام: «خلال السنوات الماضية لم تطمح إلا لسرقة الدولة ومخادعة الله وخيانة الثورة، وحاولت أن تطمس ماضيك الخسيس، لكن أعضاء الهيئة القضائية استطاعوا الربط بين خيوط قصتك المفقودة. أمتنا تعاني، وتدفع دماءها ثمنًا لحماية أرضها من الاعتداءات الغادرة على ممتلكاتها ممن يسعون إليها. أما أنت فكل ما سعيت إليه هو أن تصير ثريًا على حساب إخوتك. أنت لا تستحق أن تُهدر فيك رصاصة.»

www.ibtesama.com

لم يقو لاجيفاردي على النظر في عيني النائب العام وخفض رأسه، فقال له الأخير: «ليس لديك ما تقوله لتدافع عن نفسك، أليس كذلك؟ هل تقر بجريمتك؟»

– «نعم يا سيدي. ليس لدي ما أقوله.»

بعدها أطبق صمت ثقيل، ورأى حسن النائب العام يقلب بعصبية صفحات ملفه، ويقرأ بعض السطور ثم يرفع رأسه ويعود ليدفن رأسه في كومة الصفحات من جديد.

بعدها قال النائب العام: «ألا تزال غير قادر على أن تجد ما تقوله للدفاع عن نفسك؟»

– «لا يا سيدي، ليس لدي ما أقوله سوى أن أرجو عطفك وأطلب رحمتك.»

فحدق الرجل فيه بثبات، لقد بدا أن أذنيه الكبيرتين اللتين تبرزان من جانبي وجهه هما وحدهما ما يجعلان عمامته تستقر على رأسه. كان عمره لا يتجاوز بأي حال من الأحوال الثلاثين عامًا. أما لحيته فكانت رفيعة وغير مهذبة.

– «أتقصد أنه ليس لديك ما تعرضه علي؟ أية صفقة تدعونني إلى أن أرفق بك؟»

توقع حسن أن تسلك المحادثة هذا الاتجاه، وأن يطرأ هذا السؤال، من ثم استعد للإجابة عنه قبل ذلك الوقت بأسبوعين.

فقال للنائب العام: «أنا لا أملك الكثير يا سيدي. لكنني على استعداد أن أضع القليل الذي أملكه تحت تصرف الثورة وتصرف إدارتك المحترمة.»

– «وهل لي أن أسأل كم يبلغ هذا التبرع بالضبط؟»

– «بعض العملات الذهبية التي ادخرتها من عملي كمدرس منذ أن وصلت إلى هذه المدينة، هذا ليس بالكثير لكن يشرفني أن أهبه لخدمة قضية البلاد الكبرى.»

حينئذ نقر النائب العام بالقلم الرصاص الذي كان يمسكه على الملف ثم أفلتت من شفتيه ابتسامة ساخرة، ظل بعدها صامتًا لحظة وهو يحدق في المتهم.

www.ibtesama.com

قال النائب العام: «وأين هذا المال؟»

– «بعضه معي، والباقي في المصرف.»

– «أرني ما بحوزتك.»

حينئذ فتح حسن حزامه ببطء وأخرج منه اثني عشر ألف ريال ووضعهم على طاولة النائب العام الذي عدّهم ثم قال: «هل أنت متأكد أن هذا هو كل ما معك؟»

– «نعم هذا كل شيء ... بإمكانك أن تتحقق من هذا إن أردت»، ثم أعطاه الحزام.

– «أصدقك ... وماذا عن باقي المال، متى تستطيع إحضاره لي؟»

– «سأجلبه في أسرع وقت تريده.»

كان حسن قد جمع قدرًا كبيرًا من العملات الذهبية على مدار الشهور القليلة الماضية، حتى إنه اضطر إلى إفراغ حزامه الذي كان ثقله يمنعه من ارتدائه، ودفن حصيلته النقدية الصغيرة تحت شجرة بأرض اشتراها تقع في أحد أطراف المدينة.

قال النائب العام: «لا بد من توخي الحذر التام في القيام بهذا الأمر. ما الذي تقترحه في هذا الصدد؟»

فاقترح حسن عليه أن يسمح له بالذهاب إلى المصرف بمفرده لسحب نقوده وإحضارها بعدئذ له في مكان محدد.

هنا قال النائب العام: «هل تفكر في مكان ما؟»

فأخبره حسن عن الحديقة الصغيرة التي يملكها بطرف المدينة التي لا يمر بها أحد خاصةً مع حلول الظلام. وتردد الرجل لحظة، ثم وافق على مقابلته بهذا المكان.

فقال النائب العام: «لا تحاول أن تخدعني، سآمر بتعقبك من اللحظة التي تغادر فيها هذا المكان، وإياك أن تقع في خطأ الهرب.»

كان حسن قد لاحظ منذ لحظة قدومه إلى كرمان فرعًا للمصرف القومي في مركز المدينة يمكنه أن يفي تمامًا بغرضه. من ثم، اتفق مع النائب العام على سحب نقوده قرابة وقت الظهيرة ليسلمه إياها مساء اليوم نفسه في الحديقة التي يملكها حسن.

www.ibtesama.com

بالنسبة لمحتال متمرس مثل حسن، كان الذهاب إلى المصرف والخروج منه بعدها بنصف ساعة برزمة موثقة بإحكام بأحد الخيوط أمرًا ضئيل الشأن يستطيع بسهولة القيام به. وكان قد لاحظ أن هناك من يتتبعه بالفعل، ومن ثم، بعدما غادر المصرف، اختفى بسهولة بين حشود الناس، وبعدها، لم يكن عليه إلا أن ينتظر في صمت حلول آخر اليوم.

وقرابة التاسعة مساءً، وصلت سيارة إلى الحديقة التي يملكها حسن واجتازت بوابتها الصدئة، وأُغلقت البوابة خلفها سريعًا. كان المكان هادئًا تحيطه أسوار عالية، وفي أحد الأركان استقرت سقيفة تحوى أثاثًا وبعض أدوات أعمال البستنة.

حسبما توقع حسن، قدم النائب العام وحده إلى الحديقة؛ فلم يكن ليقاسم هذا القدر من المال مع أحد.

قال النائب: «هذا مكان جميل جدًّا، هادئ للغاية حسبما قلت. كم مضى على شرائك له؟»

– «وقت ليس بطويل. أحيانًا آتي إلى هنا مع بعض من أصدقائي عندما تشتد حرارة المدينة أو أشعر بالقليل من التعب. لا أملك سيارة، لكنني لم أجد قط مشقة في السير إليها.»

أراد النائب أن يفرغ من هذا الشأن سريعًا فقال: «أنا في عجلة من أمري، هلا أنهينا هذا دون المزيد من التأخير؟»

فقال حسن: «بالطبع يا حضرة النائب ... النقود هناك، هلا تفضلت باتباعي؟»

تبعه النائب، وبعدها، حدث كل شيء بسرعة؛ فما إن دخل الأخير سقيفة الحديقة، حتى التقط حسن فأسًا وانهال به على رأسه بكل قوته. بعدئذ خيم صمت، لم يقطعه إلا جسد النائب وهو يهوي على الأرض، بلا صراخ أو أنين. بعدها أمضى حسن عصر ذاك اليوم في حفر حفرة بالعمق الكافي لاحتواء جسد النائب مطويًّا. ونزع عن الأخير ببراعة زي القاضي الشرعي الذي كان يرتديه، حريصًا كل الحرص ألا يلطخه بالمزيد من الدماء، ثم ألقى بجثمانه في الحفرة، وغطاه بالجير. وبعد نصف ساعة فرغ من تغطية جثمانه بالجير وإخفائه تحت أثاث السقيفة وأدوات البستنة.

www.ibtesama.com

بعد ذلك، أغلق حسن باب السقيفة وركب سيارة النائب، وقادها مسافة نصف ميل تقريبًا شمالًا إلى مدينة راور، دون أن يضيء مصابيح السيارة، إلى أن وصل إلى جسر ترجل عنده من السيارة وقام بتعشيق تروس ناقل حركتها ثم تركها لتسير ثم تهوي في المياه المتدافعة لنهر صغير على عمق ثلاثين مترًا.

مع بزوغ ضوء الفجر، نهض حسن من نومه ولم يضع لحظة واحدة، فشرع في غسل بقايا بقع الدم التي كانت تلطخ عمامة وملابس النائب العام. ومن خلال الصخرة الشاطئية التي استقر عليها، كان يكشف المناطق الريفية المحيطة به، ولا يمكن لأحد أن يبصره أو يباغته عندها. وبعد أن جفت الملابس، ارتداها بعد أن استولى على محفظة وساعة النائب العام ومتعلقاته الشخصية الأخرى، ثم حفر حفرة دفن فيها ملابسه وأحرق جميع الأوراق التي كانت بحوزة النائب العام والتي تدينه.

وعندها فقط أخذ يتساءل عما يعتزم القيام به بعد ذلك. أي مكان ذا الذي بستطيع الذهاب إليه الآن؟ فمما لا شك فيه أن أجراس الإنذار قد دقت آنذاك؛ فقد اختفى حسن من السجن، وكذلك اختفى النائب العام، ولن يمضي وقت طويل قبل أن يتم العثور على السيارة، وسيبدأ استجواب القرويين في مدينة راور أو قرية دربند أو حتى مقاطعة نهبندان التي تقع على مشارف الصحراء.

هنا تذكر أنه ذهب ذات مرة في نزهة خلوية مع الأسرة التي عاش معها بمدينة كرمان، سلكوا فيها طريقًا امتد بطول الجانب الآخر من الجبل، وصعدوا ممرات جبلية عميقة تؤدي إلى سفح بعض المنحدرات الصخرية الشاهقة، لكن عندما ساءت أحوال الجو فجأة ذاك اليوم، تعذر عليهم الوصول إلى وجهة رحلتهم، إلى قرية كوبايه؛ واضطروا إلى أن يرجعوا على أعقابهم ويعودوا من حيث أتوا.

كان حسن لا يزال على بعد ما لا يقل عن عشرين ميلًا من قرية كوبايه، وقرر أنها المكان الذي سيقصده، وبدأ في السير إليها.

وقبل مرور نصف ساعة على بدء حسن لمسيرته إلى كوبايه، شاء الحظ أن تمر به حافلة قديمة توقفت لتصحبه معها، وأطل سائقها من نافذته قائلًا: «تعال يا شيخنا. ادخل، سأقلك.»

www.ibtesama.com

لم يكن حسن مستعدًا لهذا الأمر، لكنه كان سيثير الريبة لدى من حوله إن رفض. ومن ثم، قال للسائق: «سآتي، لكن، كم تبلغ أجرة الركوب؟»

فضحك الأخير قائلًا: «على حافلتي لا يدفع أولياء الله؛ إنهم ضيوفنا.»

جلس حسن في مؤخرة الحافلة التي حملت على متنها ثمانية ركاب، كل منهم حمل بضائع وحقائب شتى متنوعة وأقفاصًا صغيرة، وكان النعاس قد خيم عليهم جميعًا، فلم ينتبهوا إلى حسن.

بعد نصف ساعة، استقرت الحافلة في كوبايه. كان ذاك يوم السوق بالقرية.

سرت أنباء وصول رجل الدين — الشيخ حسن — إلى كوبايه كانتشار النار في الهشيم. كان رجال الدين بالطبع يردون إلى قرية كوبايه من حين لآخر، إلا أنهم لم يقدوها إلا في المناسبات الخاصة. من أين أتى هذا الشيخ؟ أين كان عمدة القرية عندما قدم؟ لِم لم يكن هناك لاستقباله؟

ركض ابن حفار آبار القرية بأقصى استطاعته بحثًا عن العمدة وهو ينادي: «حاج إبراهيم! حاج إبراهيم!»

واقتحم دار بلدية القرية حيث أبصر شكر الله جليلي أحد نواب العمدة.

فسأله: «هل العمدة هنا؟»

فأجابه شكر الله: «إنه بالأسفل في المرج.»

ووجد الصبي العمدة جالسًا على أعشاب المرج بجوار راعي الماشية ينفث دخان غليونه الذي لا يفارقه قط.

فقال: «حاج إبراهيم ... تعال ... تعال حالًا.»

فرفع العمدة العجوز رأسه وقال: «ما الأمر يا رحيم. لم هذه العجلة؟»

فأعاد الصبي قوله: «تعال ... حالًا.» ثم أمسك بيد عمدة القرية وحاول أن يساعده على النهوض قائلًا: «إنه هنا. إنه هنا!»

«لكن لِمَ كل هذا؟ أخبرني بما تحاول قوله يا بني.»

– «الملا ... الملا ... جاء على متن الحافلة مع نصر الله.»

تبع الحاج إبراهيم الصبي وهو يجد صعوبة في مواكبة خطاه حتى بلغا ساحة القرية. وحينما وصلا إليها، كانت حركة البيع والشراء في السوق في ذروتها، لكن لم يكن هناك أثر لأي ملا.

www.ibtesama.com

فسأل إبراهيم: «قل لي يا نصر الله، لِمَ كل هذا؟ هل أتيت بأحد الملالي إلى هنا؟»

فأجابه نصر الله: «نعم يا حضرة العمدة. أتيت بواحد من الملالي لم يكثر الكلام معي. لم أطالبه بأي مبلغ نظير الركوب معي، لكن الله سيعوضني يومًا ما، لقد قصد هذا الاتجاه، كان يريد أن يعرف من المسئول عن القرية.»

فعاد العمدة والصبي أدراجهما واتجها إلى دار بلدية القرية، وأبصرا بمجرد دخولهما إياها حسن لاجيفاردي جالسًا على مائدة، موليهما ظهره ينتظر أن يأتيه شكر الله بالطعام.

فقال الحاج إبراهيم: «السلام عليكم.»

رد حسن التحية ومضى قائلًا: «عسى الله القدير أن يحميك ويحمي رعيتك جميعًا.»

فانحنى الحاج إبراهيم للأمام بعض الشيء تعبيرًا عن الاحترام والامتنان، ثم قال: «مرحبًا بك بيننا يا شيخنا ... ولك القليل الذي نملكه.»

صب شكر الله لحسن قدرًا من الشاي وقدم له القليل من الكعك المجفف وبعض الفاكهة، فتجرع حسن الشاي بصوت مزعج جدًّا، والتهم الطعام المقدم إليه بنهم شديد؛ فهو لم يتناول شيئًا منذ مساء اليوم السابق، ويضاف إلى ذلك أحداث الأربع وعشرين ساعة الثقيلة الماضية التي تسببت في تضوره جوعًا. فلما أكل وشرب ملء بطنه، عدل ظهره ومسح فمه بظهر يده ثم قال: «اسمي حسن لاجيفاردي. وأنا أتنقل بين أرجاء البلاد من مكان إلى آخر باسم إمام الثورة؛ لأنشر كلمته وكلمة الله.»

تأمل إبراهيم وشكر الله والصغير رحيم ذلك الرجلَ الذي بدت عليه مظاهر السمو، بنظارته التي استقرت على طرف أنفه الطويل، وشعر لحيته الأشيب الكثيف، وعمامته السوداء التي ارتداها على رأسه والتي تميز بها أصحاب النسب النبوي الشريف، ورداؤه البني الطويل الخفيف الذي بدا جديدًا تقريبًا ووصل إلى قدميه اللتين تظهران من صندله المعقود والمزين بالأشرطة، فرددوا جميعًا في صوت واحد: «العظمة لله ولرسوله ... أطال الله في عمر حضرة الإمام المبجل.»

استطرد حسن قائلًا: «لقد أتيت حالًا من مدينة كرمان. وقبل ذلك كنت في مدينة يزد، وقبلها كنت في أصفهان، وقبلها كنت في مدينتنا المقدسة قم.»

www.ibtesama.com

فقال إبراهيم: «ليكن هذا المكان مكانك يا سمو الشيخ. نحن أناس متواضعو الحال، لكننا شرفاء مجدون. سل ما شئت وسيُلبى طلبك. لقد أرسلك الله لتكون بيننا ولك منا كل الترحيب.»

– «أنا أرمل وحيد، كل ما أريده هو أن أشعر بالدفء بين أناس طيبين بسطاء.»

كان الجميع آنذاك منخرطًا في تناول الطعام والشراب، فلما فرغ إبريق الشاي، قاطع لاجيفاردي الصمت الذي ساد بينهم موجهًا حديثه إلى الحاج إبراهيم: «بالغ الناس في الثناء عليك أسفل الوادي؛ لذا قررت أن أزورك وأن أمكث هنا فترة قصيرة قبل أن أستأنف رحلتي. ويؤسفني أنني لن أمكث بينكم إلا فترة قصيرة.»

رأى الحاج إبراهيم في هذه الزيارة تشريفًا له؛ فسمح لحسن لاجيفاردي بالإقامة في أفضل غرف دار البلدية، وعرّفه في مساء اليوم نفسه بأهل القرية، وسرعان ما امتزج بأهل القرية وصار واحدًا منهم، الأمر الذي عاد إلى حد كبير إلى إكبار الجميع لورعه وتقواه الجليّين.

قبل أن يمضي وقت طويل، انصاع الحاج إبراهيم لتأثير ضيفه وصار يبتغي رفقته كلما أمكنه ذلك؛ فقد أحب الاستماع إلى القصص التي رواها عن رحلاته العديدة وحجته إلى مكة، ولقاءاته الشخصية بإمام الأمة العظيم في عاصمة البلاد.

وحينما وصل غوربان علي إلى القرية مساء أحد الأيام وقابل ذلك الوافد وجهًا لوجه، سادت لحظة من الصمت، وبعد أن تبادل الرجلان عبارات الكياسة والتعارف، دارت بينهما بعض الكلمات البسيطة المبتذلة. ولم يكن لأحد أن يتنبه إلى معرفة أحدهما بالآخر إلا من كان لديه خبرة واسعة.

وبعد وقت قصير، وافق إبراهيم تحت إصرار غوربان علي على أن يضع منزل سيد القرية السابق تحت تصرف حسن، وكُلفت امرأتان من القرية بخدمته. وبلا شك، صار حسن — الذي أطلق على نفسه اسم الشيخ حسن — أهم شخصية في قرية كوبايه.

وبمرور الأشهر تزايد تأثير الشيخ الزائف وهيمنته على عمدة القرية، وصار العمدة حريصًا ليس على الاطلاع على رغباته فحسب وإنما على تنفيذها أيضًا.

www.ibtesama.com

لقد علم حسن كيف يداهن بحذق شديد، وكيف يقود الدفة حتى وإن كان في الخلفية، بحيث يعود النفع من مؤامراته على الحاج إبراهيم وحده.

ومع ذلك سرعان ما كون حسن لنفسه ثروة صغيرة لا بأس بها؛ فعمله سمح له بأن يقوم بدوره بوصفه كاتب عدل عندما تطلب الأمر، ومحاميًا، ووسيطًا، ومرابيًا، وناصحًا، وأمين سر للقرية بأسرها.

من هنا أصبح منزل سيد القرية السابق شبيهًا إلى حد ما بدار العدل، التي لعب فيها الملا حسن كل الأدوار؛ لقد مثل كلًّا من النائب العام ومحامي المساعدة القضائية. ولأنه تقاضى ثمنًا نظير كل خدمة أسداها، لم يلبث أن امتلك بعض الأراضي، وست مواشٍ، وبعض الدواجن، ومنزلًا متهالكًا أو اثنين، والأهم من ذلك أنه امتلك حقلًا امتد بطول النهر الصغير الذي تدفق منه الماء إلى قرية كوبايه والوادي الذي يقع أسفلها.

وحاز حسن كل هذا بطرق سليمة تمامًا من الناحية القانونية؛ وبموافقة كاملة من عمدة القرية ونائبيه. وكانت السيدة زهرة قد بذلت قصارى جهدها لتحذر إبراهيم من أن ذاك الرجل المخيف ليس فقط دجالًا وإنما أيضًا محتالًا، لكن إبراهيم أبى أن يصغي إلى أي من هذا، وما كان منه إلا أن قال لها إنها لا تفقه شيئًا في أمور التجارة، ونصحها بألا تقلق حيال هذه الأمور.

وكانت زهرة تقول لنفسها: «مسكين إبراهيم، لو كان فقط يفيق من غفلته.»

لم يغادر إبراهيم كوبايه على مدار عمره الطويل إلا مرة واحدة؛ فلما كان فقره الشديد يمنعه من الحج إلى مكة أو كربلاء، ادخر كل ريال امتلكه حتى أصبح لديه ما يكفي من المال للقيام برحلة إلى مدينة مشهد احتفالًا بعيد مولده الثلاثين. واستمرت رحلته إلى تلك المدينة التي تقع في الطرف الآخر للبلاد شهرًا كاملًا، وتغير على إثرها تمامًا حال عودته؛ فبدا وكأنه قد حظي بنعمة إلهية؛ فبعدما عاش في ضجر حياة صاخبة مضطربة، أصبح هادئًا عميق التفكير، وبعد أن كان محجمًا عن الاهتمام بأي شيء، قرر أن يدرس مدة ساعة يوميًّا في مدرسة القرية المحلية؛ ليتعلم على الأقل مبادئ القراءة والحساب.

www.ibtesama.com

ولقب بعد عودته من الحج بلقب «الحاج»؛ الأمر الذي جعله يحتل مقامًا رفيعًا بين مسئولي القرية المحليين.

وبصفته عمدة لقرية كوبايه التي بلغ عدد أهلها مائتين وخمسين شخصًا، تمتع بثقة كبيرة، وطوال حياته، كان يساعد أهل القرية، وكان صديقًا لهم جميعًا ولم يطلب يومًا مقابلًا نظير أدائه لعمله، إلا أنه لم يترفع عن قبول دجاجة أو كيلوجرام أو نصف من الأرز هديةً نظير عمل أو صنيع يسديه. لذا، لم تستطع زهرة أن تتفهم السبب الذي دفعه فجأة إلى الاهتمام بالمال إلى هذا الحد الواضح منذ قدوم حسن إلى القرية.

أحيانًا كان إبراهيم والملا حسن يختليان معًا في إحدى غرف بيت سيد القرية السابق ساعات متواصلة، لكن لم يستطع أحد أن يحزر فيما كانا يتناقشان. وفي وقت لاحق، كان ينضم إليهما هاشم وغوربان علي — الذي أخذت أنشطته العديدة المتنوعة في كرمان تدر عليه الأرباح.

وتناهت أصواتهم إلى مسامع زهرة في منزلها المجاور لمنزل سيد القرية السابق، لكنها لم تستطع أن تتبين ما يخططون له. مع ذلك كانت موقنة أن الأربعة يدبرون لأمر مريب بمساعدة إبراهيم الغافل، وتحت ستار الثقة الهائلة التي يتمتع بها حسن. وقد كان صوت غوربان علي والملا هما الصوتان الأكثر وضوحًا.

وما أدهش زهرة هو دور الحاج إبراهيم في تلك الخطة؛ فلم تكن لدى الرجل قط أمانٍ كبيرة في الحياة؛ لقد امتلك منزلًا خاصًّا به، وكبر أبناؤه، واستقلوا بذواتهم، وكذلك كان دخله البسيط كافيًا لسد احتياجاته، ولم يفكر قط في الزواج مجددًا عقب وفاة زوجته، وكان يرتدي دائمًا الملابس البسيطة ولم تكن لديه احتياجات حقيقية.

كانت الشائعات تدور منذ فترة من الوقت أن غوربان علي يرغب في الزواج مجددًا من امرأة من المدينة لم يسبق أن رآها أحد؛ فقد انقطعت علاقة ثريا به منذ سنوات؛ ولم يكن الطلاق ليسوءها. لكن المشكلة هي أنه على غوربان إن طلق زوجته أن يدفع مبلغًا كبيرًا نظير الطلاق لأنه لا يوجد ما يعيب ثريا.

ذات يوم كان خوف العجوز زهرة على ابنة أختها ثريا يدفعها إلى التغاضي عن مبادئها؛ فتعمدت الصياح في ساحة القرية منادية على إبراهيم

www.ibtesama.com

بصوت عال يصل إلى أسماع الجميع قائلةً: «إبراهيم، مر بي لزيارتي عندما تفرغ من عملك، وليكن هذا في وقت قريب، سأنتظرك.»

ولم يسبق لأحد قط أن سمع السيدة زهرة تدعو شخصًا من القرية إلى زيارتها في بيتها، ولا وهي تبدو بهذه الثقة قطعًا. فترك إبراهيم ما يفعله ثم حدق في صديقته زهرة وبعدها سار مبتعدًا.

فصاحت هي من خلفه: «لا تنس ... سأنتظرك.»

وفي وقت متأخر من عصر ذاك اليوم، دق إبراهيم باب زهرة.

فصاحت: «ادخل ... الباب مفتوح. لقد تأخرت بما يكفي للوصول إلى هنا.»

تمتم إبراهيم بكلمات قليلة مبهمة ثم جلس.

فسألته زهرة: «هل كان عليك أن تطلب إذن السيد لاجيفاردي قبل أن تأتي إلى هنا؟ أنت لم تعد المسئول عن قريتك إذن، أليس كذلك؟»

– «هل تتلصصين علي؟»

– «ما الذي قد يدفعني إلى التلصص عليك؟ كل ما علي أن أفعله هو أن أنظر عبر نافذتي لأجدك هناك في أي وقت من اليوم، صباحًا ومساءً، تدخل منزله أو تخرج منه. فيما مضى كنت تمضي المزيد من الوقت في بيتك أو دار البلدية أو بين الحقول. أما الآن، فيبدو وكأنك تسكن منزل هذا الشخص.»

– «زهرة، لا تزالين تلك العجوز سليطة اللسان، أليس كذلك؟ ألن تتغيري أبدًا؟»

– «هل تعتقد حقًّا أنه يمكن لعجوزين حادي الطباع مثلي ومثلك أن يتغيرا في هذه السن؟ لقد فات الأوان على ذلك، وهذا هو بالضبط ما يزعجني، أيها الحاج.»

– «ما الذي يزعجك؟»

– «أنا لم أعد أرى فيك ما أحبه واحترمه الجميع، فمنذ أن قدم هذا الشخص إلى البلدة وأنت خاضع تمامًا لتأثيره. لست أتحدث عن غوربان علي وهاشم، فهما يستحقان الشفقة أكثر من اللوم. أما أنت فلا أستطيع أن أفهم ماذا دهاك في هذه السن!»

www.ibtesama.com

– «لكنني لا أزال كعهدي دومًا يا زهرة، أنت تعلمين هذا.»

– «صديقي المسكين، أنت تحسب أنك لم تتغير، لكنك صرت مختلفًا تمامًا. لا أدري ما الذي تفعله مع هذا الرجل، لكن لدي إلى حد ما فكرة جيدة عن ماهيته. على كلٍّ دعني أخبرك بشيء واحد: لن أسمح لك بأذية صغيرتي ثريا حتى لو كنت الحاج إبراهيم أو عمدة كوبايه؛ لأن الأمر كله يدور حولها، أليس كذلك؟ أهل القرية بأسرها يعلمونه.»

– «ما الذي يعلمه أهل القرية بأسرها؟»

– «يعلمون أنكم تدبرون مؤامرة ما حول غوربان علي وثريا.»

فأجابها إبراهيم بهدوء: «صحيح أن غوربان علي يود أن يتزوج من فتاة جميلة من المدينة وأنه يريد الانتقال للعيش فيها، وأن زوجته لم تعد ترضيه، بل سأزيد على ذلك وأقول إن لديه لائحة طويلة من الشكاوى المبررة ضد ثريا. إن إهمالها له يتزايد، ولم تعد تعتني بأطفالهما جيدًا، والطعام الذي تعده صار لا يؤكل تقريبًا، وكذلك اكتشف غوربان علي أنها صارت تمضي الكثير من الوقت في بيت هاشم منذ وفاة فيروزة.»

فقاطعته زهرة قائلة: «إبراهيم لاهوتي ... انظر إلي وجهًا لوجه ... هل تعي ما قلته لتوك؟ ألا تخجل من نفسك؟ ليس هناك زوجة أو أم أفضل من ثريا في القرية بأسرها، وأنت تعلم هذا!»

– «جميعنا يرى أنها تقصد بيت هاشم كثيرًا وتمكث فيه وقتًا طويلًا.»

احتجت زهرة قائلة: «لكن جميعنا طلب منها هذا، لم يرغب أحد في القيام بذلك الأمر، وجميعنا اختارها. أم أنك لا تذكر هذا؟ إبراهيم، انظر إلي في عيني، ألا تذكر هذا؟ لقد كنت أنت في الواقع من صحبها في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك!»

أطرق الرجل العجوز رأسه ولم يقل شيئًا.

فقالت زهرة: «أريد أن أعلم بما يجري!»

أجابها إبراهيم: «هذا شأن خاص بالرجال لا النساء. وعلاوةً على ذلك، أنت لن تتفهمي الأمر لو أخبرتك به.»

«أتعني أنك من يتفهمه؟ أنت وشخصان مثل حسن وغوربان علي. يا له من فريق رائع! أنت الأرمل، وذاك الذي يدعو نفسه ملا، وذلك الرجل عديم النفع.»

www.ibtesama.com

– «لا أسمح لكِ بالحديث عن السيد لاجيفاردي بهذه الطريقة؛ إنه رجل دين وعليك أن تحترميه لهذا. الرجل لم يقترف ذنبًا، وأنت لا تملكين الحق لكي تتحدثي عنه هكذا، إنه شرف لقريتنا.»

– «أنت تعلم أنك تكذب يا إبراهيم، لكنه جعلك كالخاتم في إصبعه، حتى إنك لم تعد الشخص ذاته. لست خجلة منك، أنا خجلة من أجلك.»

وثارت ثائرة العجوز حتى إنه لم يكن هناك ثمة ما يوقفها عن الحديث.

فقالت: «لقد فقدت في غضون أشهر قليلة كل شيء، كل شيء منحك الحق لأن تكون قائد قريتنا: الثقة والنزاهة والشجاعة والاستقلال بالرأي والصلاح ... انظر فحسب إلى نفسك، إن كنت إلى الآن تملك الجرأة الكافية لمطالعة نفسك في المرآة. لم تعد عمدة القرية الحقيقي منذ وقت طويل، ولست وحدي من يرى هذا. القرية بأسرها تتفق معي، وجميعنا يدهشه الأمر. أحذرك أيها الحاج، فأنا الشخص الوحيد الذي لا يزال يجرؤ على الحديث إليك بهذه الطريقة، لا تتمادى وإلا ستجدني أعترض طريقك مثلما وجدتني كثيرًا في الماضي ... ألا تتذكر؟ ... ألا تتذكر؟»

لم تعبأ ثريا بالمؤامرة التي تُدبر ضدها في منزل سيد القرية السابق، أو لم تبد اهتمامًا كبيرًا بها؛ فقد كانت على يقين من براءتها، وغوربان علي وهاشم يشهدان بهذا. ومع ذلك حاولت زهرة أن تحذرها.

قالت لها زهرة: «عليكِ بالحذر؛ لقد تغير غوربان علي وهاشم، ولم يعودا مثلما كانا. وهاشم يتبع زوجك كالجرو المطيع منذ أن أصبح أرمل، فهو يسيطر عليه تمامًا. سينحاز هاشم إلى من تكمن معه أفضل مصالحه، وفيروزة لم تعد موجودة لتوجيهه. لقد نقل زوجك إلى القرية كل عادات المدينة السيئة منذ أن اعتاد على أن يمضي الوقت هناك.»

لم تبد ثريا أي رد فعل، لقد كانت تعلم أن العجوز محقة، لكن ما الذي كانت ستفعله حيال هذا؟ لقد توقفت عن الحديث إلى زوجها منذ وقت طويل الآن، وابناها الأكبر سنًّا كانا يتحاشيانها. أما أطفالها الأصغر، فكانوا يشبون في شوارع القرية، لا يعودون إلى المنزل إلا بعد مغيب قرص الشمس خلف الجبال، والأتربة والقذارة تغطيهم.

www.ibtesama.com

ولما كان العداء الذي شعرت ثريا بازدياده من حولها يثقل كاهليها، قررت ذات يوم ببساطة أن تكف عن الكلام فحسب. ولما لاحظت زهرة المنحى الذي سلكته ثريا، أدركت أن إدلاءها بالدفاع عن نفسها صار الآن أكثر صعوبة، طالما أنها ترفض تبرير موقفها.

أما عن حسن لاجيفاردي، فلم ينقصه شيء، وبالأخص الطعام؛ فمن أُوكلوا بالعناية به كانوا يجلبون له لترًا من اللبن كل صباح، وبعض الجبن، والخبز، وكذلك كوفئ بسخاء على كل خدمة أداها؛ حرصًا على الاهتمام الشديد به.

لذا ادخر من الصفقات السرية العديدة التي أجراها قدرًا هائلًا من المال جعله في وقت قصير أحد أكبر ملاك الأراضي في المنطقة الجبلية بأسرها، وازدادت سرعة نمو ثروته بفضل الصفقات التي عقدها في مختلف الأعمال مع قطاع الطرق بوادي القرية، عن طريق غوربان علي الذي كان وسيطًا له. وعلى الرغم من ذلك، تمكن من الحفاظ على أسراره طي الكتمان دائمًا، ولم يظهر اسمه قط على أي من أوراق تلك الأعمال. لقد اكتفى بإدارة زمام الأمور، أما غوربان علي فكان هو من يوقع باسمه أو الأحرف الأولى منه على الوثائق — أيًّا كانت — لتنفذ الأعمال على اختلافها.

من هنا، صار غوربان علي صاحب حديقة صغيرة في ضواحي كرمان، تملؤها الأشجار وتحوي في أحد أركانها سقيفة صغيرة. وبالمثل عادت هذه الصفقات بأرباحها على الحاج إبراهيم، فقد تملك بضعة أسهم في بيت هوى كان قد زاره ذات يوم، لكنه لم يخضع فيه لشهوات الجسد.

لقد عقد الجميع صفقة ما، ومن وراء الكواليس سيطر حسن على كل شيء.

وأكثر من سيطر عليه حسن بالطبع هو الحاج إبراهيم؛ فقد تمتع الأخير بثقة مطلقة في قرية كوبايه بصفته عمدة القرية، والأختام الرسمية التي وضعها على جميع الوثائق أجازت الأنشطة التجارية المحظورة التي اشترك فيها حسن وغوربان علي معًا.

www.ibtesama.com

وصاغ الملا حسن الوثائق والنصوص الرسمية حسبما شاء، دون أن يفندها أي شخص؛ أولًا: لأنه لم يكن هناك الكثيرون ممن يستطيعون القراءة والكتابة في القرية. ثانيًا: لأن القليلون الذين استطاعوا ذلك كانوا ينخدعون بصيغة الوثائق الرسمية.

وانخدع عمدة القرية، ووقع على كل الأوراق التي قُدمت له مؤديًا دوره كزعيم للقرية على أتم وجه، وحثته الإهانات التي كالت بها زهرة إليه باستمرار على المضي في الطريق الذي رسمه له حسن.

ولم يبد أن هناك من يهتم بتلك الصفقات، وعندما أشار الابنان الأكبر سنًّا لغوربان علي إلى ما يجري أو استفسرا عنه من وقت لآخر، خرج غوربان علي والشيخ حسن وإبراهيم وهاشم بتفسيرات جاهزة لكل شيء. واتضح أيضًا أن هاشمًا شريك مثالي. لم يطلب منه الآخرون إلا أن يوجه اتهامًا إلى ثريا يشهد فيه بأنها ألحت عليه وضايقته، بل واقترحت عليه ممارسة الفحشاء، وحاولت بصورة مباشرة إغواءه مرات عديدة، حتى إنها لاطفته وداعبته وتفوهت له بكلمات لا تتفوه بها المرأة إلا لزوجها.

أما ما حرص عليه إبراهيم مهما كلفه الأمر فهو ألا يبدو لزهرة — التي فطن إلى أنها تراقب جميع تحركاته من نافذة بيتها — رجلًا غير شريف. فقد علم أنها تعي ما يجري. من ثم بذل قصارى جهده ليبدو على قدر ظنها به، حتى يحفظ ماء وجهه أمامها.

لقد فرضت هذه المرأة سيطرتها عليه طوال خمسين عامًا؛ فدائمًا تواجهه بالمطالب ودائما تحصل منه على ما تريد، حتى إنه لم يدر كيف يرفض ما تطلبه. أما الآن فقد صار ببساطة مضطرًا لأن يتعلم كيفية مواجهتها. ودُبرت المؤامرة؛ لقد ناسبت مراده ومراد الشيخ حسن، وهو لم يرد في المقام الأول أن يثير أي مشاكل مع ذاك الرجل الذي استطاع أن يبسط نفوذه على القرية بأكملها بين عشية وضحاها. لقد تساءل عما إذا كان هناك من أرسله إلى القرية وعما إذا كانت لديه حقًّا — حسبما يزعم — صلات وثيقة ببعض أصحاب المناصب الرفيعة، وعما إذا كان باستطاعته أن يستدعي الشرطة المحلية أو قوات الأمن القومي أو حتى

www.ibtesama.com

القاضي الإسلامي كلما وجد في نفسه ميلًا إلى ذلك — حسبما تعود أن يشير إلى الأمر مرارًا وتكرارًا.

لقد كان إبراهيم ضعيفًا طيلة حياته؛ فلأوامر سيد القرية السابق أذعن بالانحناء في صمت، ولما وُوجِه بالتصرفات غريبة الأطوار لزوجته التي قدمت إلى القرية بدون ارتداء الحجاب، لم ينبس ببنت شفة، وأمام استفزازات ابنه المتكررة الذي غازل بوقاحة فتيات القرية متحديًا التقاليد، لجأ مرة أخرى إلى الصمت.

ولكن بما أن زهرة تعمدت استفزازه وإذلاله كلما سنحت الفرصة، قرر أن يُظهر لها معدنه الحقيقي.

لم يكن هناك ما يعترض طريقه، وحالما يثبت حسن وغوربان علي أن ثريا آثمة بمساعدة هاشم، ويعلم الجميع بذلك، سيُصدق على أقوالهما ويضع حدًّا لهذه المسألة.

www.ibtesama.com

الفصل الرابع

كانت زهرة — وهي أكبر نساء قرية كوبايه سنًّا — امرأة عجوز ضئيلة الجسم أحنت ظهرها نوائب الدهر. لم يعلم أحد سنها بالتحديد، شأنها شأن العجوز إبراهيم، إلا أن كليهما جاوز السبعين من عمره، وكان الجميع يهابونها، لكنهم حرصوا على نيل احترامها.

لعقود طويلة لم يُتخذ قرار في القرية دون موافقتها، فقد كانت دائمًا صاحبة رأي سديد في جميع المسائل، سواء أكانت تتعلق بإزالة أشجار الغابات، أو بناء جسر عبر النهر الصغير المجاور للقرية، أو حفر آبار أكثر عمقًا، أو زواج، أو مأتم.

لذا جاءها أهل القرية الذين اتصفوا بالحكمة طلبًا للرأي السديد، فالكل كان يعلم أن الحاج إبراهيم — الذي تولى والده منصب عمدة القرية من قبله — لا يتمتع بما يؤهله لخلافة والده العجوز الراحل، إلا أن زهرة قررت أن يصبح عمدة القرية؛ فلم يجرؤ أحد على معارضتها.

وكانت زهرة قد اعتادت منذ طفولتها أن تقصد النهر الصغير المجاور للقرية، سواء أكانت حالة الجو جيدة أم سيئة لغسل ملابس أسرتها.

وكانت زهرة تُقسم وقتها بين عملها في المنزل ومهامها عند النهر، لا تتكلم إلا قليلًا، وتصغي بعناية لما حولها وتتأمله، ولا يقصد منزلها إلا القليل من الزوار بخلاف أفراد أسرتها.

كانت زهرة على دراية بكل شئون جميع أفراد القرية الشخصية؛ وكانت تشرف على ولادة الأطفال وختان الفتيات منهم، وتجلس على انفراد مع شباب القرية قليلي الخبرة ليلة زفافهم لتخبرهم كيف يتصرفون مع

www.ibtesama.com

زوجاتهم. وشهدت زهرة دفن جميع أصدقاء طفولتها واحدًا تلو الآخر. ولم تراودها الرغبة قط في أن تقصد مدينة كرمان الكبيرة، لكنها علمت بما كان يجري بها عن طريق القصص التي عاد بها من ذهبوا إلى هناك.

كانت زهرة تغيب عن الأنظار في الأيام التي تصل فيها الحافلة إلى القرية، ولم تكن تكترث كثيرًا بالزيارات المعتادة التي كان يقدم فيها سيد القرية وعائلته إلى القرية مساء يوم الخميس، وتعودت المكوث في منزلها يوم سيزده بدر — اليوم الثالث عشر بعد عيد النوروز — الذي يغادر فيه القرية جميع أهلها حسبما تقضي التقاليد. حينئذ كانت القرية بأسرها تخلو لها؛ فتتجول بين منازلها الخاوية جيئة وذهابًا، لا يشاركها المكان إلا بعض الكلاب الضالة، والغربان التي تعلو الأشجار، والفراشات التي تظهر مع بدء كل ربيع.

وقد كفت منذ بضع سنوات الآن عن المشاركة في احتفالات القرية — حتى احتفالات الزيجات — ولم يعد الآخرون يرونها إلا في المآتم وهي تتجه إلى المقبرة الصغيرة في الغابة المجاورة للقرية لوداع أحد الأصدقاء للمرة الأخيرة. ولما كان والدها هو من حفر أول آبار القرية، مُنحت شرف أن تكون أول من يستخرج المياه منه، ومنذ ذلك الحين، حملت تلك البقعة من القرية اسمها.

والقرية وما يحيط بها كانا العالم الوحيد الذي عرفته زهرة، فقد أقامت طوال حياتها في منزل واحد ورثته عن أبيها يقع بجوار بيت سيد القرية السابق، وأظهرت منذ صغرها استقلالية نادرة في التفكير وقدرة على الاعتماد على الذات.

وفي تلك الأيام لم تكن الفتيات يرتدن المدارس، وإنما كن يمكثن في بيوت أسرهن ويساعدن أمهاتهن في أداء الأعمال المنزلية، ثم تُزوجهن أسرهن في سن صغيرة جدًّا من أحد الجيران، الأمر الذي أدى أحيانًا إلى ضم قطعتي أرض معًا أو تحسين بناء بعض الأكواخ وتوسيعها.

في طفولة زهرة، جاءت إلى كوبايه عربة يجرها بغل، قادمة من مدينة كرمان، حملت على متنها معلمًا جوالًا جلب معه بعض أقلام التلوين الخشبية والكتب ومزمارًا، وأمضى عدة أيام في القرية. كانت زهرة آنذاك أكثر الطلاب اجتهادًا في استذكار الدروس التي ارتجلها.

www.ibtesama.com

ومنذ ذلك الحين، لم تفارقها الرغبة في التعلم؛ بل تزايدت بمرور الأعوام، حتى إنها فيما بعد درّست ما تعلمته؛ لأنها كانت تقول «الله ورسوله يعرفان القراءة والكتابة، وعلى كل مسلم جدير بالاحترام أن يتعلمهما».

وذات يوم قرر والدا زهرة أنها بلغت السن المناسبة للزواج، واختارا مرتضى رمضاني زوجًا لها، لكنها أبت الزواج منه، وفرت من المنزل وجابت حقول القرية ساعات متواصلة حتى عادت مع حلول الغسق، وأوضحت أنها لن ترضى بالزواج من أي فتى لا يستطيع القراءة والكتابة.

وفي نهاية الأمر، ارتضت بالزواج من شاب يدعى نعمة الله كان يكبرها بعشرة أعوام، أبدى استعدادًا لتعلم القراءة والحساب، وفي الواقع أصبح الذراع الأيمن لعمدة القرية بمساعدتها؛ إذ اضطلع بالأعمال المكتبية ومسئولية الاحتفاظ بسجلات القرية.

وبوصفها عروسًا شابة، لم يختلف نصيبها عن نصيب سائر فتيات القرية؛ فحبلت على مدار العشرة أعوام التالية عدة مرات وأنجبت ستة أطفال، نفر واحد منهم فقط من العيش كأحد أهل القرى طيلة حياته؛ فارتحل إلى المدينة حيث أصبح رجل شرطة.

دام زواج زهرة من نعمة الله أكثر من ثلاثين عامًا، وتوفي زوجها قبل وقت قصير من وفاة زوجة الحاج إبراهيم؛ فحسب جميع أهل القرية أن الزواج سيجمع في آخر الأمر بين زهرة وإبراهيم اللذين تعود صداقتهما إلى وقت طويل، لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل، ومضت الحياة كعهدها.

بخلاف منزلها وأسرتها وزيارة النهر الصغير المجاور للقرية بانتظام، بدت زهرة غير مهتمة بأي شيء آخر، وبعدما زوجت أبناءها واحدًا تلو الآخر، ارتحلوا جميعًا إلى أماكن بعيدة، لأن الحياة استحالت مع تعنت زهرة وتدخلها في جميع المسائل، وإن كانت ترى أن العكس هو الصحيح.

وأبدت زهرة منذ وقت مبكر جدًّا من حياتها إيثارًا ملحوظًا بابنة أختها ثريا؛ فقد سمحت لها وحدها بزيارتها في جميع الأوقات بدون إذن مسبق. وقد رهب غوربان علي زيارات زوجته لتلك العجوز؛ إذ كان موقنًا من أنها تشكوه إليها؛ تشكو كسله وقذارته وأكاذيبه. ولما عُرفت زهرة بسورات غضبها الجامحة، تخوف منها غوربان علي بشدة.

www.ibtesama.com

حظت ثريا — شأنها شأن زهرة — بقدر أساسي من التعليم حاولت أن تنقله إلى أطفالها، وكانت كخالتها زهرة ربة منزل مثالية علّمت أطفالها الهندام والنظافة، وكذلك ماثلت خالتها زهرة في أنها لم تتعود التسكع في شوارع القرية أو الحديث إلى أحد ما لم يبادر بالحديث إليها.

ولما أضحى ميل غوربان علي إلى العيش في المدينة جليًّا لها، تعودت اللجوء إلى منزل العجوز زهرة حيث وجدت الراحة والمشورة.

وفي صباح أحد تلك الأيام، وفيما كانت زهرة بمطبخ منزلها، تناهى إلى سمعها فجأة صوت جلبة كبيرة من خارج المنزل. كان ذلك اليوم هو يوم السوق حيث تتناهى صيحات الباعة فيه إلى سمعها، لكن الصيحات التي انبعثت من الجلبة بدت أعلى، وأسرت فضولها؛ فاتجهت إلى نافذة المطبخ وأطلت منها، لتجد على بعد خطوات قليلة من منزلها حشدًا مجتمعًا، وحاولت السيدة العجوز بصعوبة أن تتبين من أصدر هذا الصياح.

صاح الحشد: «عاهرة ... لست سوى عاهرة، عاهرة قذرة. ساقطة ... ابنة ساقطة.»

في آخر الأمر، تبينت زهرة صوت غوربان علي، فأصابتها الدهشة، وترددت لحظة ثم حسمت قرارها بالخروج من المنزل والاقتراب من الحشد.

كانت الصيحات قد أخذت في الارتفاع آنذاك مرددة: «أيتها البغي ... يا ابنة البغي ... عار عليك يا من لا تعرفين الحياء.»

وبصعوبة شديدة، شقت زهرة طريقها بين الحشد بمنكبيها، فوجدت ثريا ومن حولها مجموعة من الرجال والنساء، جميعهم يصرخون فيها ويرهبونها بالصياح. حاولت ثريا أن تفلت من الحشد الساخط لكنه انقض عليها بسيل من الضربات القوية المتسارعة طرحتها أرضًا.

فألقت زهرة بنفسها بين الحشد محاولة حماية ابنة أختها، فأصابتها هي الأخرى بعض الضربات عند انقضاض البعض عليها هي أيضًا.

صاح صوت بين الحشد: «دعك من هذا الأمر يا سيدة زهرة. هذه العاهرة لا تستحق حمايتك ... اتركي المسألة لنا.»

نهضت المرأتان، وسكت الجميع، ثم تفرست زهرة وجه غوربان علي وهي تقول له: «ما الذي يحدث هنا بالضبط؟ هل جننت؟ هل تدرك ماذا تفعل؟»

www.ibtesama.com

فقال غوربان علي ثائرًا وهو يحاول جاهدًا أن يتمالك نفسه: «كل ما في الأمر أنها تلقى الجزاء الذي تستحقه ... لقد خانتني ... هل تفهمين هذا؟ خانتني!»

– «ماذا تعني بأنها خانتك؟ ومتى خانتك؟ وأين؟ ومع من؟»

– «الآن. هناك، مع هاشم، لقد ضبطتهما متلبسين.»

فصاح الحشد: «إنه محق. غوربان علي ينطق بالحق. لقد خانته.»

لكن زهرة ظلت غير قادرة على استيعاب الأمر.

فقالت: «كفوا عن الصياح هكذا. لا أستطيع أن أتبين كلمة مما يقال عندما يصرخ الكل في وقت واحد. تعاليا إلى منزلي، لنتطرق إلى صلب هذه المسألة.»

صحبت زهرة ثريا إلى المنزل ممسكة بكتفها، وفي إثرهما غوربان علي وما يقرب من عشرين شخصًا من أهل القرية.

فلما بلغوا المنزل، التفتت زهرة إلى الحشد وقالت: «لن يدخل جميعكم. لن يدخل إلا ثريا وغوربان علي، وليأت أحدكم بالعمدة. لا أريد أحدًا آخر هنا.»

لكن الحشد وقف أمام المنزل ينتظر وصول الحاج إبراهيم، فيما بكت ثريا ووقف غوربان علي إلى جانبها وهو يرتعش غضبًا.

وعندما وصل العمدة أخذ يسأل العجوز زهرة: «لماذا كل هذا؟ ما الذي يجري؟»

وقبل أن يتسنى لزهرة الرد عليه، صاح غوربان علي: «لقد خانتني، خانتني مع هاشم، لطالما علمت بهذا، لكنني اليوم ضبطتهما متلبسين.»

فالتفت الحاج إبراهيم إلى ثريا وسألها: «أصحيح ما يقوله زوجك؟ هل خنته؟» فجاهدت ثريا نفسها للتحدث وأجابته: «كلا، غير صحيح، لم أخنه.»

فعاد غوربان علي يصرخ من جديد بأعلى صوته قائلًا: «أنت تكذبين ... تكذبين، أقري بأنك تكذبين، القرية بأسرها تعلم هذا. أنت تقصدين دار هاشم يوميًّا، وتعتنين به وببيته أكثر مما تعتنين بأسرتك، لقد ضاجعته، الكل يعلم هذا.»

– «هذا غير صحيح ... لم تقول هذا؟ سيدة زهرة أنت تعلمين الحقيقة، لا تدعيه يقول هذه الكلام.»

www.ibtesama.com

تشبثت ثريا بذراع السيدة العجوز وقد علت وجهها نظرة توسل.

فأخذت زهرة تسأل غوربان علي وقد بدا عليها التأثر الشديد بما قالته ابنة أختها لتوها: «أنت تقول إنها خانتك، فما الذي فعلته بالضبط؟»

فأجابها غوربان علي: «هي تعلم ما الذي فعلته، لقد رأيتهما يقفان أحدهما بالقرب من الآخر، لقد رأيتهما يتهامسان، لقد ضبطتهما ... إنها مذنبة ... لقد خانتني.»

فقاطعه الحاج إبراهيم موجهًا حديثه إلى ثريا: «هل يقول زوجك الحقيقة؟»

بدا على ثريا الاستياء الشديد، وكانت قد أجهشت بالبكاء الشديد حتى إنها وجدت صعوبة في الإدلاء بجانبها من القصة، قالت: «لقد أخبرت هاشم بأنني أعددت العشاء وانتهيت من غسل الملابس وأنني سآخذ معي ملابس الأطفال الليلة لكيها، وابتسم كل منا للآخر بالفعل. الكل يعلم أنني أعتني بأسرة فيروزة منذ وفاتها، الكل يعلم هذا.»

– «بالضبط حسبما يعلم الجميع أنك تمكثين في منزله ساعات متواصلة، وأنك تضاجعينه. إن الناس حتى ليقولون إنك حبلت منه.»

– «هذا كذب، لم ألمس هاشمًا قط، ولم يمسسني قط. كيف أجرؤ على هذا وأنا امرأة متزوجة؟»

توجه إبراهيم بحديثه إلى ثريا وقد بدا عليه الشك إلى حد ما: «ثريا، لقد عرفناك منذ طفولتك، لكن الحق هو أنك تمضين الكثير من الوقت في منزل هاشم منذ أن وافت حبيبتنا فيروزة المنية، لذا أستطيع أن أتفهم سبب شكوى زوجك. إنك تهملين منزلك وأطفالك.»

فقالت ثريا: «لم أهمل أحدًا. سل السيدة زهرة وجيراني عني، سيخبرونك بأنني أم جيدة وزوجة مخلصة.»

فقال غوربان علي: «هذا كذب، لقد خنتني، القرية بأسرها تعلم هذا. لقد خنتني عندما كنت في كرمان، والشيخ حسن يعلم هذا، هو أخبرني بذلك ... لتسأله يا حاج إبراهيم.»

فردت عليه زهرة قائلة: «لا إثم في الحديث إلى زوج أعز صديقاتها. هاشم رجل صالح وفاضل، ائتوا به إلى هنا، وسيخبرنا بالحقيقة.»

www.ibtesama.com

اقتيد هاشم إلى داخل المنزل، وبدأ إبراهيم في استجوابه قائلًا: «قل لي يا هاشم، ما الذي كنت أنت وثريا تتبادلانه من القول قبل قليل، عندما كنتما تتهامسان؟»

فأجابه هاشم: «لقد أخبرتني أنها ستأتي إلى منزلي لتعد الغداء وأنها ستكوي الملابس ... و... أنها ....»

– «وماذا أيضًا يا هاشم؟ امض في كلامك.»

– «وأنها تود أن تستريح لدي قليلًا لأن التسوق أتعبها.»

فصاحت ثريا: «ليس هذا ما قلته، لم أقل قط شيئًا من هذا القبيل. ما قلته هو أنني سأعود بملابس أسرتك إلى منزلي وأنني سأقوم بكيها حالما أحصل على قيلولة.»

فأطرق هاشم برأسه رافضًا أن يقول المزيد.

هنا واصل غوربان علي صياحه قائلًا: «أرأيتم، كل ما تفعله هو الكذب. لطالما كانت كاذبة.»

فنظر العمدة إبراهيم إلى زهرة وقد شعر ببعض الحرج، ثم سعل بارتباك واستطرد قائلًا: «هاشم، أصغ إلي جيدًا، ما سأقوله مهم للغاية. هل قالت ثريا إنها تود أن تستريح قليلًا في منزلك بعد الغداء أم لا؟ تكلم!»

فتردد الرجل لحظة، ودون أن يرفع رأسه اختلس النظر إلى غوربان علي الذي وقف في مواجهته خلف العمدة إبراهيم مباشرةً.

فقال العمدة موجهًا حديثه إلى هاشم: «أجب عن سؤالي، نعم أم لا.»

– «نعم ... نعم ... لقد قالت هذا.»

– «انظر في عيني وكرر ما قلته لتوك.» كان هاشم رجلًا مضطربًا أخرق بعض الشيء، لم يقو قط على النظر في أعين الناس عند حديثه إليهم، وكان على الدوام يخفض رأسه بمجرد أن يخضع للترهيب، وأبسط مضايقة كان بإمكانها أن تتركه معقود اللسان ساعات متواصلة، وقد علم إبراهيم بهذا الأمر، لكنه أراد أن يحصل منه على جواب قاطع.

من ثم، قال له: «هاشم، انظر إلي جيدًا. لا تخف مني؛ فنحن يعرف كل منا الآخر منذ وقت طويل. أنا كوالدك. أريدك أن تنظر إلي وتجيب بنعم أو لا.»

www.ibtesama.com

فرفع هاشم رأسه متحاشيًا التقاء عينيه بعيني زهرة وثريا اللتين حدقتا فيه بثبات.

وقال إبراهيم: «سأسألك مرة أخرى. فكر جيدًا قبل أن تجيب. أصحيح أم لا أن ثريا أوعزت إليك أنها تود أن تأتي إلى منزلك وتستريح هناك بعد الغداء؟ أصحيح أم لا؟»

فأومأ غوربان علي لصديقه هاشم برأسه إيماءة غير ملحوظة انتبهت إليها زهرة على الفور، فرمقته بنظرة صاعقة، فأطرق هو الآخر رأسه.

قال هاشم: «نعم يا حاج إبراهيم. لقد قالت هذا ... وأرادت أن تفعل هذا مثلما فعلته كثيرًا في الماضي ... إنها تأتي بيتي باستمرار ... ولا يروقني هذا الأمر ... وتتمدد على الفراش عندما لا يكون هناك أحد ... وتتفوه لي بأشياء محرجة ... هذا صحيح. أنا أخبركم بالحقيقة ... يجب أن تصدقونني.»

لم تستطع ثريا تصديق أذنيها.

فقالت: «هذا كذب. لم أمكث أبدًا في منزله لحظة واحدة بعد انتهاء عملي. وباب المنزل كان دائمًا مفتوحًا. يا إلهي! ما الذي علي أن أفعله ليصدقني الناس؟ أقسم أمام الله أن كل ما نطق به هاشم محض افتراء!»

بعدها التفتت ثريا إلى هاشم وقالت له: «لِمَ تقول هذه الأشياء؟ أنت تعلم أنني أحبك كأخي وأن فيروزة كانت أختًا لي. لِمَ تحاول إيذائي هكذا؟»

خيم صمت ثقيل على الجميع بضع لحظات، بعده عاد هاشم يكرر اتهامه بعد أن تلقى إشارة حذرة من غوربان علي قائلًا: «حاج إبراهيم، كل ما قلته هو الحق. أقسم بذلك. فثريا تأتي إلى منزلي في جميع الأوقات، حتى عندما لا أكون بحاجة إليها، وغوربان علي يعلم هذا، لقد أخبرته بهذا، والشيخ حسن يعلم بهذا أيضًا، لقد أخبرته هو الآخر، وما قلته لكليهما هو الحق.»

بعدها أطرق هاشم رأسه من جديد وكأنه يشعر بالخجل مما قاله الآن.

فمرر إبراهيم أصابعه في شعر لحيته والتفت إلى غوربان علي متجاهلًا زهرة وثريا ثم سأله: «أهذا صحيح؟ أكنت تعلم بهذا طوال الوقت؟»

فأجابه غوربان علي: «نعم يا حاج إبراهيم، لكنني لم أرد تصديق هذا. أنا أحب زوجتي؛ لذا لم أستطع أن أصدق ما سمعت. وقد حدثني الشيخ

www.ibtesama.com

حسن عن الأمر، وحدثني آخرون عنه لدى عودتي من مدينة كرمان، لكنني ظللت لا أصدقه. كان علي أن أشهده بأم عيني، كان علي أن أشهده وهو يحدث بالفعل. واليوم فعلت!»

– «ما الذي رأيته؟ أخبرني ثانيةً.»

– «رأيتهما يتبادلان الابتسامة ويتهامسان، ورأيت أيديهما متشابكتين. لقد مالت نحوه وهمست له بشيء في أذنه. هذا ما رأيته.»

فقاطعته ثريا من جديد قائلة: «لم أمل نحوه، ولم أهمس له، ولم أمسس يده. لعل أحدنا قد ابتسم للآخر، لا أذكر؛ أنا ابتسم للجميع في كوبايه، للرجال والنساء على حد سواء إذا كانوا أناسًا فاضلين.»

فقال لها إبراهيم: «ثمة رجلان في هذه الغرفة يتهمانك بارتكاب سلوك لا يليق بزوجة وأم. هل بإمكانك أن تثبتي عدم صدق أقوالهما؟»

دهشت ثريا تمامًا من السؤال، وتلعثمت قائلة: «أثبت؟ ... ماذا تعني بأن علي أن أثبت؟ ليس علي أن أثبت شيئًا، بل عليهما هما أن يأتيا بدليل. أين ارتكبت هذا؟ ومتى؟ وتحت أي ظروف؟ ما الذي يملكونه للإجابة عن هذه الأسئلة؟ أنا امرأة شريفة، لم أعرف إلا رجلًا واحدًا في حياتي، وهو زوجي ... ليس علي أن أثبت شيئًا. وإن كنت ترمي إلى أنني حبلى بغية إيذائي مثلهما، فكل ما عليك هو أن تنتظر تسعة أشهر وسترى أن كل هذا محض افتراء.»

أزعجت العبارة الأخيرة عمدة القرية، الذي بدا من الواضح أنه لم يتوقعها، فتابع كلامه قائلًا: «ثريا، يبدو أنك تجهلين قوانين مجتمعنا التي أقرها إمامنا المبجل منذ بضعة أعوام. عندما يتهم رجل زوجته، فعليها أن تثبت براءتها. هذا هو القانون. أما عندما تتهم امرأة زوجها، فعليها هي أن تأتي بالدليل. أتفهمين؟ إنهما يقولان إنك مذنبة. أثبتي العكس، ولن نجد جميعًا مشكلة في تصديقك.»

هنا تكلمت زهرة التي ظلت إلى تلك اللحظة صامتة على غير العادة، وقالت: «إبراهيم، كلانا أعلم بالآخر بما لا يدع مجالًا لأن يكذب أحدنا على الآخر، ألا تتفق في هذا معي؟ حسنًا. ما أعنيه هو أن الأمر برمته تفوح منه رائحة المؤامرة. ليس على ثريا إثبات أي شيء. إنها أم شريفة مجدة فاضلة

www.ibtesama.com

وزوجة صالحة قويمة الخلق، ساعدت عائلة صديقتها فيروزة منذ وفاتها، ومع هذا، أنت تطلب منها أن تثبت أنها زوجة مخلصة لم تخن زوجها. أما تدرك سخافة هذا الموقف؟ إن كانت إحدى بناتك، أكنت ستطرح عليها الأسئلة نفسها؟ ما كنت لتفعل هذا بالطبع. أنت تعلم جيدًا أن ثريا لم ترتكب إثمًا، لكنك لا تجرؤ على قول هذا. أقر بأن ما أقوله صحيح!»

فوجئ إبراهيم بهجوم العجوز عليه، وانتظر إلى أن تفرغ من ثورتها ثم أجابها قائلًا: «تأكدي أنه إن سمحت إحدى بناتي لنفسها بأن تقف في مثل هذا الموقف — حاشا الله — كنت سأفعل مثل هذا بالضبط. إن منصبي عمدة هذه القرية يحتم علي أن أجري هذا التحقيق، سواء أكان الأمر يروق لك أم لا. هذه المرأة متهمة بالخيانة من زوجها ومن هذا الرجل الذي يزعم الناس أنه عشيقها. ومن الواضح أن الشيخ حسن — الملا المختص بالقرية — يعلم بالأمر. الآن أعلم أنا به أيضًا، مثلما يعلم به آخرون بالقرية، وسنكون نحن القضاة.»

بعدها استدار العمدة إبراهيم مغادرًا منزل العجوز دون حتى أن يودعها، وفي إثره غوربان علي وهاشم، وافترق أهل القرية الذين انتظروا خارج المنزل.

صعقت الدهشة زهرة حتى إنها عجزت عن إيجاد كلمات تصف ما تشعر به. أما ثريا فقد غشيها الذعر والإعياء، وسقطت على الأرض بلا حراك، معقودة اللسان، تبدو شاحبة شحوب الموتى.

تملك زهرة الرعب فجأة. فكانت تعرف ثريا تمام المعرفة بقدر ما كانت تعرف نفسها؛ وكانت تعلم بأسى أن ثريا عاجزة تمامًا عن الدفاع عن نفسها. لطالما علمت بهذا؛ فقد أحنت الرأس وأذعنت في صمت لعقاب كل من اتهمها بعمل أخرق أو سخيف منذ طفولتها.

رفضت زهرة دائمًا هيمنة الرجال في القرية، ولم تتردد قط في التعبير عن رأيها، وكان الرجال يهابونها ويخافون من سياط لسانها.

لكن منذ اندلاع الثورة، صار للرجال السلطة المطلقة، واضطرت زهرة إلى الإقرار بالهزيمة وعدم اعتراض الطريق أمام النظام الجديد، فأي محاولة

www.ibtesama.com

منها للوقوف في وجه أمر ما أو تبني موقف أو رأي حازم بشأن موضوع ما كانت ستفسر تفسيرًا خاطئًا وتُستغل ضدها تلقائيًا، بالإضافة إلى ما يستتبعه من العواقب.

ومنذ أن رأت الشيخ حسن يصل إلى كوبايه، فطنت إلى أن الشيطان قد وجد طريقه إلى القرية، وأنه لن يكون هناك من يطرده منها؛ وفي وقت وجيز للغاية، استطاع الملا حسن الذي نال قسطًا من العلم والثقافة أن يأسر جميع رجال القرية ويصادقهم. كان يتحدث إليهم في المساء بعد انتهائهم من العمل عن حقوقهم والصلاحيات التي يملكونها، وعما يمتازون به عن النساء، وعن الحدود التي لم يعد يسمح للمرأة بتجاوزها؛ فتغير بعض من عوام رجال القرية المغمورين تمامًا بين عشية وضحاها، وبدءوا في نشر الرعب في القرية بالسكاكين والنبال.

حينئذ دب الذعر بين الشابات من النساء مثل ثريا وفيروزة وكوكب واحتمين ببيوتهن إلى أن استعاد الحاج إبراهيم سيطرته على الموقف من جديد، لكن التهديد لم يختف على الإطلاق، وإنما ظل يتفاقم بمساعدة وتحريض بعض رجال القرية الذين عرف عن أغلبهم الكسل والصدور المشحونة بالغضب، والذين رأوا في عقيدة التطهير التي أتى بها الإسلام الجديد وسيلة تضفي معنى إلى حياتهم البائسة.

لقد شق الشيخ حسن طريقه في شارع القرية الوحيد كأنه رسول أتى بكلمة الحق، لكنه لم يلبث أن فطن إلى أن زهرة ستكون خصمًا هائلًا له؛ فالعجوز لم تدْعُه قط إلى منزلها، واقتصرت محادثاتهما النادرة على بعض عبارات الكياسة مثل «في رعاية الله» أو «إن شاء الله» أو «الحمد لله».

قبل أن يمضي وقت طويل، تنبهت العجوز ذات السبعين عامًا إلى مكمن الخطر؛ لقد علمت أن حسن تودد إلى ثريا وقوبل بالرفض، وأن غوربان علي يخوض علاقة غرامية في المدينة، وأنه لن يتورع عن فعل أي شيء ليتخلص من زوجته بدون أن يضطر إلى إعادة مهرها إليها.

فقالت لثريا: «ثريا، نحن الآن بمفردنا. أخبريني بالحقيقة، هل دار أي شيء بينك وبين هاشم؟»

www.ibtesama.com

رفعت ثريا رأسها ونظرت إليها وقد حمل وجهها تعبيرًا بريئًا كالذي يحمله دائمًا عندما لا تفهم أو تخشى شيئًا.

وقالت: «خالة زهرة، كيف لك أن تسأليني هذا السؤال؟»

– «أسأله لأنني أود الحصول على جواب.»

– «مطلقًا، مطلقًا يا خالة زهرة. لم يدر بيني وبين هاشم أو أي رجل شيء قط. أنت تعلمين هذا والآخرون جميعهم يعلمون هذا. لم أفكر حتى في أن أرتكب فعلًا كهذا لأن والديّ ربياني على ألا أفكر في مثل هذه الأشياء. أنا امرأة شريفة وسأظل هكذا حتى آخر أيامي.»

فقالت زهرة: «لقد أردت سماعك تقولين هذا فحسب.»

ووضعت يدها على رأس ثريا ودعت لها قائلة: «حماك الله يا ابنتي. لقد جُن الرجال هذه الأيام وما عادوا يدركون ما يفعلون.»

بعدها تناهى إلى مسامع المرأتين أصوات من الشارع، ثم طرق شخص الباب، ففتحته زهرة لتجد بعضًا من نساء القرية يرتدين عباءات سوداء من بينهن سكينة زوجة مسعود حلاق القرية، وروبابه زوجة كريم قصاص صوف الغنم.

وقالت إحداهن: «طلب منا إبراهيم أن نأتي ونمكث معكما. إنه يجمع رجال القرية للتناقش في الأمر.»

فلزمت زهرة الصمت لحظة؛ إذ فهمت ما يعنيه هذا: العمدة جمع حوله أقرب مستشاريه للتوصل إلى قرار؛ ومن ثم ما كان منها إلا أن سألت: «ومن معه؟»

فأجابت المرأة: «هناك السيد لاجيفاردي، والسيد رمضاني، وغوربان علي، وابناه الأكبر سنًّا، ونائبا العمدة شكر الله ومحمد، وهناك أيضًا بابا كور العجوز الكفيف الذي كان يغفو بجانب النهر الصغير. لا أعتقد أن هناك أحدًا آخر.»

لقد عكف الرجال على تطبيق العدالة الإسلامية دون أن يحول دونها أي عائق؛ إذ لم يكن شيء ليعترض طريقها، حتى لو اقتنع أحد الرجال ببراءة ثريا، ودفعه ذلك للإعلان عنه.

لم تملك زهرة أدنى فكرة عما قد تواجهه ثريا فعليًّا نتيجة تلك المناقشات؛ فقرارات العمدة — على حد ما كانت تذكر — لم تكن قط أكثر

www.ibtesama.com

من غرامة أو حكم شكلي لكي يعتبر الناس، أو قد تقضي في بعض الحالات بمطالبة المتهم أو المذنب بتقديم تبرع للقرية.

دارت الشائعات في القرية بلا آخر، ودق الرسل باب زهرة يخبرونها بأنه يجري وضع حكم صارم — عقاب شديد يعتبر به الناس — واجتمع الرجال أمام مبنى دار البلدية قليل الارتفاع، ولكل واحد منهم رأي يدلي به حول المسألة، ومن ثم خلت أكشاك الأسواق والمحال من الناس، فيما احتشد الرجال جميعًا في ساحة القرية للتناقش والتباحث.

أرسلت زهرة إحدى النساء للاختلاط بالجمع، فلما عادت إليها أخبرتها بأن الحشد يطالب بتطبيق عقوبة الإعدام. وما لبثت زهرة أن سمعت بهذا حتى أبعدت ثريا عن سائر النساء في المنزل وانفردت بها في غرفة النوم؛ إذ لم تملك إلا القليل من الوقت لتحذيرها مما يجري ومن الحكم القاسي الذي قد تواجهه. فيما بعد لم تذكر السيدة زهرة شيئًا عن ردة فعل ثريا وعما جرى في غرفة النوم عندما قدم عمدة القرية شخصيًا لإعلان القرار الذي توصل إليه محكمو القرية. والشيء الوحيد الذي ذكرته هو أن المرأة الشابة بدت هادئة البال ولم تحاول تبرئة نفسها.

وفي ذلك قالت زهرة: «أعلم أنها بريئة من الجريمة التي اتُّهمت بها، هي لم تكن بحاجة لأن تخبرني بهذا. الكل هنا علم بذلك أيضًا، لكن لم يكن هناك ما يقف في طريق تلك العجلة الشيطانية التي أطلقها الرجال.»

وعندما سأل الناس زهرة عن السبب الذي دفعها إلى أن تهب ثريا رداءها الأبيض الجميل للغاية الذي احتفظت به لعقود في خزانة ثيابها، اكتفت بقولها: «ذاك الصباح ارتدت ثريا ملابس بسيطة جدًّا للذهاب إلى التسوق. ولما كنت مقتنعة بأنهم متى أصدروا حكمهم فلن يسمحوا لها بالعودة إلى منزلها، أردتها أن تظهر بالمظهر الذي يليق بكرامتها أمام من اتهموها. لم يرتد هذا الرداء أحد سواي، ولا حتى بناتي ليلة زفافهن. عليكم أن تقروا بأنها كانت ظروفًا استثنائية».

أخذت النساء ذات العباءات السوداء في البكاء والدعاء. فقد كن دائمًا يتكاتفن في المآتم واعتدن ترنيم الابتهالات معًا.

www.ibtesama.com

وبينما تنقضي ساعات اليوم ببطء، ازداد الرجال سخطًا، فمع بداية عصر اليوم عادت هتافاتهم العدائية تدوي في القرية من جديد، وهم يرددون: «المرأة عاهرة»، «فاسقة»، «امرأة لا يمكن أن يغفر لها». وبعد ذلك بوقت قصير ترددت صيحاتهم: «لترجم» و«لتقتل»، وألقيت بعض الحجارة صوب منزل زهرة، ثم خيم الصمت قليلًا، بعده طُرق باب المنزل، ففتحته إحدى النساء اللائي مكثن بداخله لتجد مريم زوجة حفار آبار القرية سعيد وأكرام زوجة الجزار مهدي.

وقالت إحداهما: «لقد انتهى الرجال.»

ومع هذه الكلمات غادرتا المنزل.

www.ibtesama.com

الفصل الخامس

فُتح باب مبنى دار البلدية الخشبي.

همهم الحشد همهمة طويلة، ودوت بعض الصيحات العدائية هنا وهناك، غشيها صوت وابل من التصفيق. فلقد قصد جميع أهل كوبايه فعليًّا دار البلدية وخلفوا ديارهم ومحالهم وراءهم بلا تفكير لترقب الحكم. ولما يقرب من الساعة، ظلوا يتداولون أحداث الصباح بألسنتهم تحت أشعة الشمس الحارقة.

ظهر العمدة، وفي إثره الشيخ حسن، ورجل قصير رديء الملبس أحنى ظهره الكبر، يتكئ على عصا، وتكسو وجهه لحية بيضاء لفتت الأنظار إلى وجهه ذي التجاعيد. وحينما بلغ العمدة إبراهيم والشيخ حسن أدنى درجات سلم دار البلدية؛ استدارا ونظرا للوراء إلى الرجل العجوز باحترام.

قال الرجل العجوز بصوت مرتجف بعض الشيء: «مذنبة!»

حينئذ دوى صياح الحشد، بل وأُطلق رصاص بعض البنادق؛ وذعرت كلاب القرية من شدة الضجيج وأخذت في النباح. وعلت الأذرع في الهواء في حماسة، وهلل الرجال قائلين: «مذنبة! ... إنها مذنبة!»

وأخذت الصيحات ترتفع أثناء هبوط الرجل العجوز درجات السلم التي تفصله عن الحاج إبراهيم والملا حسن اللذين بدورهما ساعداه على النزول، وأفسح الحشد له الطريق. لقد حكم مرتضى رمضاني لتوه على ابنته ثريا بالإعدام.

www.ibtesama.com

بعدئذ خيم الصمت على الحشد مجددًا؛ فقد ظهر عند مدخل دار البلدية شخص رابع: غوربان علي الذي رفع ذراعه اليمنى ببطء ثم قال بنبرة رزينة: «الرجم. لترجم!»

عندئذ سيطرت الهستيريا تمامًا على الحشد وتناقلت الألسنة اللعنات كالنيران، وبدأ الناس يرقصون.

صاح غوربان علي مجددًا بأعلى صوته، وكأنما انخرط في المناخ الهستيري الذي سيطر على الجميع: «الرجم!»

لقد حكم غوربان علي الآن على زوجته بالموت رجمًا. لقد بدا سعيدًا. وبابتسامة عريضة، وهو يكاد يبدو جذلًا، هبط ببطء درجات السلم الثلاث التي تفصله عن الحشد. فربت بعض الرجال على ظهره بحماسة وحرارة واحتضنه البعض الآخر، وتشبث الأطفال بقميصه. وحملته الأذرع ورفعته عن الأرض.

بدأت آنذاك مظاهر الاحتفال ومضت طقوسه.

لم يعبأ أحد بالرجال الآخرين الذين برزوا بعد ذلك من مبنى دار البلدية المبني بالطوب اللبن: ابني غوربان علي الأكبر سنًّا ذوي الملامح الخشنة — أحدهما في السادسة عشرة من عمره والآخر في الثامنة عشرة من عمره — ونائبي العمدة، والعجوز الضرير الذي قاده الآخرون ببطء بين الحشد الهائج.

رددت الصيحات: «الثأر بالدم! الثأر بالدم! الثأر بالدم!»

أخذ الموكب العجيب يسير ببطء في شارع القرية يتلوى في طريقه حتى توقف أمام نافورة في ساحة القرية. وكانت الشمس ساطعة تتوهج بحرارة شديدة، وعبقت الهواء رائحة العرق وملأه الغبار.

ووسط الرجال ذوي الثياب الرثة والشعر الأشعث، والنساء ذوات العباءات السوداء، والأطفال الذين غمرتهم الحماسة، وقف الرجال التسع الذين أصدروا لتوهم الحكم.

طلب الحاج إبراهيم منهم الصمت. فكانت حرارة الجو لا تطاق؛ حتى إن التنفس كان صعبًا. قال إبراهيم: «الصمت. رجاءً. الصمت. هلا أعرتموني انتباهكم؟»

www.ibtesama.com

واضطر إلى تكرار كلامه ثلاث مرات قبل أن يستجيب الحشد لطلبه.

بعدها قال: «أصدقائي، لقد اجتمعنا هنا أمام منزل صديقنا العزيز مرتضى رمضاني، وهو أتعس الرجال على وجه الأرض اليوم وأكثرهم شعورًا بالذل والوحدة.»

همهم الحشد همهمة غاضبة، وترددت العبارة التالية على الألسنة: «صحيح، هذا صحيح إلى أبعد حد. صدقت ... يا له من رجل مسكين!»

فطالبهم إبراهيم بالصمت من جديد قائلًا: «اسمعوني ... أرجوكم ... أرجوكم اصغوا إلى ما علي أن أقوله.»

أخيرًا ساد الصمت بين الحشد من جديد.

فقال إبراهيم: «كان مرتضى رمضاني صديقنا وجارنا طوال كل هذه السنين، هنا وُلد والده وجده وأطفاله وأحفاده، وهنا دفن جميع أفراد أسرته، ولم يغادر أحدهم القرية قط.»

من جديد عاد الحشد يردد: «صحيح ... أجل. كل هذا صحيح.»

رفع إبراهيم ذراعه في الهواء من جديد قائلًا: «لقد لُوث شرفه. ليس هذا فحسب، بل لُوث شرف القرية وشرف أسرنا.»

فعاد الحشد يردد وقد تخللت كلماته الصيحات والصرخات الغاضبة: «صحيح! ... صحيح! ... صحيح!»

فلما صمت الحشد من جديد، استطرد إبراهيم قائلًا: «لكن هذا ليس كل شيء، ثمة ما هو أسوأ. فشرف مرتضى رمضاني يعنيه وحده هو وأسرته، وشرف أسرنا يعنينا وحدنا، ونعلم أن بإمكاننا استعادته، لكن أقول لكم إن هناك ما هو أسوأ بكثير من هذا: لقد استهين بحرمة الله وشرف إمامنا.»

هنا هبت عاصفة من الصرخات — من لدن مائتين وخمسين شخصًا — فالنساء تبكين، والرجال يصيحون، والأطفال يضربون صدورهم إظهارًا للندم. امتلأ الهواء بالأنين والتأوه والصرخات الغاضبة التي تردد: «لا بد أن تموت الساقطة ... الموت ... الموت لها.»

دعا الحاج إبراهيم الحشد إلى الصمت مجددًا. وفي البداية عجز صوته عن الوصول إلى الأسماع وسط جلبة الحشد الثائر التي كانت بحلول ذلك الوقت قد خرجت عن السيطرة، لكن بعد عدة محاولات، لاقت محاولاته النجاح أخيرًا.

www.ibtesama.com

قال: «في هذا البيت الذي نألفه جميعًا، عاش مرتضى رمضاني مع جميع أفراد أسرته، وولد فيه قبل سنوات كثيرة، ونشأ هو وأسرته هنا يظلهم الله بالشرف والكرامة ....»

قاطعه الحشد بترديد: «الحمد لله الرحمن الرحيم.»

استطرد إبراهيم قائلًا: «لذا قررنا أن نقرأ عليكم الحكم الذي توصلنا إليه أمام هذا البيت الذي نكن له بالغ الاحترام، وهو الحكم الذي سيعيد إلى مرتضى رمضاني الشرف الذي يستحقه هو وعائلته بكل تأكيد.»

– «الحكم ... الحكم ... اقرأ علينا الحكم.»

بدت وجوه الرجال مغمورة بالكراهية ولوح بعضهم بقبضات أيديهم في الهواء. أما النساء فأحكمن حجابهن عليهن وكأن العار قد حل بهن جميعًا فجأة.

صاح صوت: «ليُحكم عليها بالإعدام ... بالإعدام ... بالإعدام. هنا والآن.»

من جديد نادى إبراهيم بالصمت، ثم قال: «أصدقائي، أتفهم شعوركم، لكن لا بد أن ينفذ كل شيء حسبما تقضي قوانين بلدنا والأوامر العليا لإمامنا المبجل.»

فصاح الحشد وقد أطلق العنان لثورته كاملة: «إنه محق ... الرجل محق»، «لا يجوز لها أن تعيش. فليُحكم عليها بالإعدام، فليُحكم عليها بالإعدام الآن.»

هنا فقد إبراهيم القدرة على السيطرة على أهل القرية. فلما تأملهم، وجد وجوههم قد تشوهت من أثر شدة الانفعال، حتى إنه وجد صعوبة في التعرف عليهم. أيعقل أن هؤلاء هم الأناس أنفسهم الذين استيقظوا مع مطلع الفجر من أجل يوم السوق؟ لقد وقف أمامه على مسافة لا تزيد عن المتر مهدي جزار القرية ابن عم زوجته، الذي كان في العادة رجلًا جذلًا رقيق الحاشية، يتصرف وكأنه شخص قد أصابه مس، وإلى جانبه وقف رسول نجار القرية وهو يومئ بغضب شديد ويصرخ مطالبًا بإعدام المذنبة فورًا؛ لأن عليه أن يتم عمله قبل حلول الليل.

صاح إبراهيم: «أصدقائي، أستحلفكم بالله، أصغوا إلي.»

لكن استمرت صيحات الحشد وأخذت في الارتفاع وأصبحت مخيفة أكثر من ذي قبل.

www.ibtesama.com

فصاح إبراهيم: «أبنائي ... أبنائي.»

أخيرًا سكت الحشد. لقد أدرك إبراهيم أن عليه التصرف بسرعة؛ إذ قد يقود أحد المشاغبين الحشد في أي لحظة إلى المنزل الذي تمكث فيه ثريا، وهو منزل لا يحرسه سوى عدد قليل من النساء.

من ثم قال: «أصغوا إلي، أرجوكم أن تستمعوا إلى ما علي قوله.»

أخرج من حافظة نظارته القديمة البالية؛ نظارة ذات إطار مستدير وذراعين مرنين، بقي أحدهما في مكانه عن طريق شريط لاصق، ثم مسح عرق جبينه بإحدى يديه فيما ارتجفت يده الأخرى قليلًا ولكن على نحو ملحوظ.

قال إبراهيم: «دعوني أقرأ.»

بعد هذه الكلمات، ساد الصمت بين الحشد على نحو مفاجئ. وعلى جانبي إبراهيم، اعتدل الشيخ حسن ومرتضى رمضاني في وقفتيهما قليلًا حينما بدأ الحاج إبراهيم في التحدث. وكان الهواء معبقًا بتراب أصفر كريه الرائحة علق فيه بلا حراك على نحو غير معتاد، ولم يهب من الجبال أي نسيم بارد يلطف حرارة الجو الحارقة، بل بدا السيل الضئيل لمياه النافورة وكأنه صار ساكنًا.

قال إبراهيم: «بسم الله الرحمن الرحيم.»

فردد الحشد: «لك الحمد يا الله، القوي العادل، لك الحمد.»

استطرد إبراهيم قائلًا: «اليوم، الموافق السادس من شهر مرداد من عام ١٣٦٥ هجريًّا، عقد مجلس دار بلدية كوبايه جلسة بكامل أعضائه تحت رئاستي وفي حضور نائبيّ: شكر الله جليلي ومحمد غورباني.»

أردف قائلًا: «استغرق الاجتماع أربعين دقيقة، وفيه تم التوصل إلى قرار بالإجماع، وحظي كل عضو من أعضاء مجلس دار البلدية بفرصة للإدلاء برأيه، ولم يحاول أي عضو الدفاع عن المتهمة، وقررنا جميعًا أن المتهمة ثريا مانوتشهري ....»

صرخ صوت: «الخزي لاسمها. الخزي لاسمها!»

فعادت الصرخات تملأ أرجاء المكان من جديد، وبدأ البعض في التدافع وشق طريقه وسط الحشد، في حين انخرطت العديد من النساء في العويل وانفجر الأطفال في البكاء.

www.ibtesama.com

صرخ أحدهم: «لا تنطقوا باسمها ثانيةً ... الموت للبغي! ... لننهي هذا الأمر ونفرغ منه الآن ... دون أن نضيع لحظة واحدة أخرى!»

بعدئذٍ قُذف حجر من بين الحشد أصاب مرتضى رمضاني في صدره مباشرة؛ فمال جسد العجوز ببطء وهوى على الأرض وخيم الصمت على الحشد من جديد.

فسأل إبراهيم: «من جرؤ على ضرب هذا الرجل؟ على من ألقى الحجر أن يتقدم ويُظهر نفسه. من ألقى هذا الحجر؟»

طأطأ الجميع رءوسهم في وقت واحد خجلًا مما حدث، وساعد البعض الرجل العجوز على الاتجاه إلى النافورة وأسندوه إليها، ثم جلب أحدهم وسادة له ليريح رأسه على حافة الحوض.

تمتم العجوز: «لا بأس. لا أشعر إلا بألم بسيط هنا، في الجانب الأيمن ... ما من مشكلة ... تابعوا ... ولا تقلقوا بشأني.»

كان إبراهيم حينذاك جاثيًا على ركبتيه بجانب العجوز، فنهض على قدميه ببطء، ثم ألقى باللوم على حشد القرويين الذين انعقدت ألسنتهم آنذاك قائلًا: «جعلتم صديقنا يتألم للمرة الثانية في غضون ساعات قليلة. لن يسامحكم الله. في الوقت الذي أذلته فيه ابنته، سددتم أنتم له الضربة الثانية عصر هذا اليوم. ما الذي ارتكبه هذا الرجل — هذا الرجل الطيب الفاضل الذي فتح بيته دومًا لنا جميعا — لكي يستحق هذا؟»

هنا تكلم الشيخ حسن للمرة الأولى، فقد لزم الصمت حتى تلك اللحظة، مؤْثِرًا سماع الحاج إبراهيم وصرخات ولعنات أهل القرية التي صارت تحت ولايته؛ فأشار بسبابته إلى الحشد، وبالأخص إلى جماعة بدت عليها الحماسة الشديدة، وقال: «أنت هناك ... نعم أنت يا ذا القميص الأسود. تعال هنا.»

فأفسح الحشد له الطريق.

قال الشيخ حسن: «تعال هنا ... أسرِع.»

سار فتى في الخامسة عشرة من عمره تقريبًا ببطء جهة الشيخ الذي ظل رافعًا ذراعه مشيرًا إليه.

قال حسن: «أنت ابن يد الله راعي الأغنام. أليس كذلك؟»

تباطأ الفتى في الرد عليه.

www.ibtesama.com

فقال الشيخ حسن: «أجبني، هل أنت ابن يد الله راعي الأغنام؟»

أجابه الفتى بصوت خفيض وهو يحني رأسه: «نعم.»

– «لِمَ ألقيت هذا الحجر على مرتضى رمضاني؟»

أجابه الفتى بعد لحظة من التردد: «لست من فعل ذلك ... أقسم لك أنني لست من فعل ذلك.»

وقبل حتى أن يتم الفتى عبارته، هوت يد رجل الدين المرصعة بالجواهر على وجنة الفتى لتصفعه صفعة مدوية، تراجع الفتى على أثرها للوراء وسقط ممددًا على التراب. وساعده الناس على النهوض، وقد سال من فمه خيط رفيع من الدم.

وقال له الشيخ: «لست قاسي القلب فحسب وإنما أنت كاذب أيضًا. أشعر بالخزي لك ولأسرتك. من حسن الحظ أن والدك ليس هنا ليشهد هذا. لو كان هنا، لضربك ضربة أقوى من التي وجهتها إليك الآن.»

بعد ذلك استعاد الشيخ هدوءه واستطرد قائلًا: «لم ألقيت الحجر؟»

فأجابه الفتى: «لست من فعل هذا ... لم أكن الوحيد الذي ألقى الحجارة ... علي ورحيم أيضًا ألقيا بعضًا منها. لست من فعل هذا.»

فانهال الشيخ على الفتى بضربة أخرى شديدة كالأولى، تمزقت على أثرها شفته وتفجر منها الدم.

فقال الفتى: «أرجوك ... أرجوك لا تضربني ثانية. نعم أنا من ألقى الحجر ... أرجوك سامحني.»

جُر الفتى بعيدًا عن الحشد، وأُلقي في كومة من روث الحيوانات تجمع حولها الكثير من الذباب.

هنا تابع إبراهيم الذي ظل جامد الشعور طوال هذا الحدث قراءة الحكم قائلًا: «لقد أجمعنا على رجم المذنبة ثريا مانوتشهري حتى الموت قبل نهاية هذا اليوم.»

واستُقبل هذا الإعلان بجلبة أعلى من الصرخات العدائية وصيحات الفرح، وهتف الحشد: «الموت للعاهرة ... الموت لها.»

من جديد نادى إبراهيم بالصمت وقال: «لا جدوى من الصراخ. كل شيء سينفذ وفقًا لما يقضي به القانون، وحسبما أذن به القرآن وقضى به

www.ibtesama.com

القانون. لقد أمرنا الله القدير بأن نحرص على أن نشهد تحقيق العدالة؛ فقد لوثت هذه المرأة شرفنا جميعًا، وأسرتها تطالب بالثأر.»

ردد الحشد: «الثأر! ... الثأر! ... الله يقتضي العدالة والثأر.»

فقال إبراهيم: «أصدقائي! استمعوا إلي. أرجوكم أن تصغوا إلى ما علي قوله. ستثأرون لأنفسكم. سيثأر كل منكم لنفسه في الوقت المناسب، لكن علي أن أكرر لكم أن كل شيء سينفذ حسبما تقضي إرادة الله، وحسبما تقضي أوامر إمامنا المبجل.»

بعدئذ نزع إبراهيم نظارته ووضعها بعناية في حافظتها القديمة البالية واستطرد قائلًا: «لم تشهد قريتنا حادثة رجم من قبل؛ فلطالما عاش أهلها حياة فاضلة شريفة، لكنني أعلم حادثة رجم امرأة وقعت العام الماضي في مدينة خواجه أصغر التي لا تبعد كثيرًا عن هنا، وحادثة أخرى وقعت العام السابق له في مدينة شهر بابك. ولقد وصف لي صديق من مدينة كرمان كيف نُفذ الأمر، وسنقوم به بالطريقة نفسها.»

فصاح رجل في الصف الأول من الحشد: «الآن. لنقم بهذا الآن.»

وكرر آخر: «إنه محق. لنقم بهذا الآن.»

قال الحاج إبراهيم: «ستقام المراسم في ساحة القرية في غضون ساعة من الآن حتى يتسنى للجميع الحضور. في هذه الأثناء، سيكون عليَّ الذهاب إلى ثريا وقراءة الحكم عليها.»

هنا صاح رجل أعور حمل بالفعل حجرًا في يده قائلًا: «لا داعي لهذا، دعونا نذهب ونحضرها الآن. ليس هناك وقت لنضيعه، أنا مستعد، سألقي بنفسي أول حجر. هذا هو كل ما يتطلبه الأمر. هكذا أقتل الأرانب؛ بحجر واحد.»

فأجابه الحاج إبراهيم: «سنجري الأمر حسبما شرحت الآن؛ حسبما أمر الله أن يُنفذ وحسبما أوصانا إمامنا المبجل وحسبما أراد مرتضى رمضاني. الآن، اهدءوا جميعًا وعودوا إلى مساكنكم. سيُؤتى بثريا في غضون ساعة إلى ساحة القرية. الآن، عودوا إلى أعمالكم. لا أريد أن يظهر أي منكم قبل الموعد المحدد، عندها فقط يمكنكم القدوم إلى الساحة.»

بدأ الحشد ينفض ببطء؛ فعادت النساء إلى بيوتهن، وعاد الرجال إلى محالهم واتجه الأطفال إلى الحقول ليلعبوا فيها.

www.ibtesama.com

كان على الحاج إبراهيم والشيخ حسن آنذاك أن يبلغا ثريا رسميًّا بأنها لن تحيا في هذه الدنيا إلا وقتًا قصيرًا. الكل في القرية علم بهذا، إلا النساء اللائي مكثن في بيت زهرة لحراسته.

تلك كانت المرة الأولى في تاريخ كوبايه التي يتعين فيها على عمدة القرية أن ينفذ مثل هذه المهمة. وقد أشعرته بالفخر، ولكن بعدم الارتياح أيضًا، كان يعلم أن محاكم البلاد أعدمت الآلاف منذ انتصار الثورة، فقد استمع إلى الإذاعة الرسمية مرتين يوميًّا، وإلى أسماء من ارتكبوا آثامًا بحق الله وحق الإمام، ووعى إلى أن محاكم الثورة في كرمان كانت تعمل على مدار الساعة طوال الأعوام الستة الماضية لإقامة العدالة، إلا أنه لم يصوت قط على إعدام شخص، ولم ينظم إعدامًا من قبل.

www.ibtesama.com

< هذه الصفحة البيضاء متروكة فارغة عن عمد >

www.ibtesama.com

الفصل السادس

مرت ساعة على خروج الرجال من دار بلدية القرية لإعلان الحكم.

خارج منزل زهرة، خيم الهدوء على كل شيء. آذنت الشمس بالمغيب، وهب نسيم خفيف لطَّف حرارة الجو في الساحة التي غادرها الآن الحاج إبراهيم والشيخ حسن.

وفي الغرفة الأمامية من المنزل، استمر عويل النساء، الذي تخلله بين الحين والآخر بعض آيات القرآن التي قمن بترديدها.

في غرفة النوم التي تقع بالخلف، مالت زهرة نحو ابنة أختها وهمست لها قائلة: «عزيزتي ثريا، اعلمي أنني سأكون إلى جوارك مهما حدث، وسأحبك وأعتز بك مهما حدث، لكن ما الذي يسعني فعله غير هذا؟ هذا قانون الرجال، وضعوه ثم زعموا أن الله هو الذي وضعه. لقد حكموا بأنك مذنبة، وأنت لست كذلك. وأصدروا حكمهم عليك، وأنت بريئة. ليس بمقدور أحد أن يثبت هذا، لا أنت، ولا أنا، ولا النسوة الصالحات بالغرفة المجاورة.»

للمرة الأولى أدركت ثريا كيف أن الصمت الذي ركنت إليه على مدار الأشهر القليلة الماضية لم يكن في صالحها، وفجأة تملكتها رغبة عارمة في الإفصاح عما يختلج في صدرها، وشرح موقفها، وتبريره، وإعلان براءتها أمام الله، إلا أنها فطنت إلى أن الوقت قد فات، وأنها لن تجد من يصدقها بين من حاكموها وحكموا عليها، لكنها ظلت تجد صعوبة في تصديق أن تلك المؤامرة الخسيسة شديدة الوضوح قد تودي بالفعل بحياتها.

شعرت ثريا آنذاك برغبة ملحة في أن تفضي إلى خالتها بما يختلج في صدرها ويدور في عقلها؛ فقالت لها: «خالة زهرة، لا أخشى الموت؛ فقد حل

www.ibtesama.com

بي منذ وقت طويل، منذ أن توفيت أمي، منذ أن بدأ غوربان علي في إهانتي وضربي، منذ أن تركني وعاشر غيري من النساء.»

هنا عجزت عن مواصلة الكلام إذ أجهشت بشدة في البكاء، وشعرت بأنه يكاد يغشى عليها وزلت قدماها لتهوي على الأرض. فجثت زهرة على ركبتيها إلى جانبها، وأحاطت رأسها بذراعيها ثم طبعت قبلة على جبينها قائلة: «ابنتي ... ابنتي المسكينة ... لا تخجلي من البكاء ... ابكي بقدر ما تريدين. لن يسمعك أحد هنا، لن يراك أحد هنا ... أفصحي عما بداخلك. ابكي يا ابنتي، ابكي.»

وفي الغرفة المجاورة، علا صوت عويل النساء وهن يرددن: «يا الله، القدير ... يا محمد .... إلهنا الحبيب ... يا نبينا الرحيم ....»

فاستطردت ثريا قائلة: «خالة زهرة، لا أريد أن أتركك. لا أريد أن أترك أطفالي. لا أريد أن أترك صغيرتي خوجسته التي لم تبلغ السابعة بعد ... لا أريد ترك هذه الحياة، لكنني لست خائفة؛ فأنا أعلم أنني سأجد أمي حيث سأذهب. كم أفتقدها! خالة زهرة، اعتني بأطفالي من أجلي، خاصةً الصغيرة، فهي واهنة، وصحتها ضعيفة.»

أجهشت ثريا أكثر بالبكاء، وتعثرت كلماتها وهي تلتقط أنفاسها لاهثة.

– «خالة زهرة، عديني بأنك ستحدثينها يومًا ما عني عندما تكبر، وأنك ستخبرينها بما كنت عليه حقيقة وما فعلوه بي، حتى لا تخجل من أمها. عديني بأنك ستفعلين هذا.»

فقالت زهرة وقد غلبها التأثُّر: «ابنتي العزيزة، أطفالك – ولا سيما الصغار – سيعيشون معي، وسيحظون بكل ما يريدون. سيكونون أطفالي، ولن يسلبهم أحد مني. سيكون بيتي بيتًا لهم.»

علمت زهرة وهي تنطق هذه الكلمات أن هذا الوعد لا يشمل ابني ثريا الأكبر سنًّا؛ فكلاهما سار على خطى أبيه واشترك في كافة عمليات الاتجار الصغيرة والخطط المريبة بمباركة والده.

كان الابن الأكبر حسين علي صورة طبق الأصل من والده؛ فقد كان له الوجه المربع ذاته، والعينان الغائرتان، والشارب واللحية غير المهذبين، والعنق القوي الذي يبدو مثيرًا للإعجاب بالنسبة لفتى في مثل عمره. فهو لم

www.ibtesama.com

يرتد المدرسة إلا ثلاثة أعوام برزت شخصيته فيها فقط بتهربه من الدراسة وعصيانه.

لقد لفت الأنظار إليه منذ سن صغيرة جدًا بسلوكياته السيئة: تحطيم النوافذ، وارتكاب السرقات التافهة، كسرقة الدجاج والأرانب التي تعود أن يذبحها قبل أن يتجه بها إلى جبال القرية لإيقاد النار ثم شيها. كذلك برز بين أقرانه بسبب مشاجراته التي لا تنتهي مع غيره من الصبية الذين يماثلونه في العمر.

في البداية وبخه أبوه على سلوكه السيئ، بل وعاقبه على جرائمه بالضرب أحيانًا، حتى إنه لا تزال به ندبة بشعة المنظر بجانب أذنه اليمنى من أثر ضرب والده له في إحدى المرات، لكنه مال إلى العودة لارتكاب الجرائم الصغيرة نفسها كلما تلقى الضرب عليها. ولما كان مشاكسًا وعنيدًا وعنيفًا، أمضى الوقت بين حقول القرية وإسطبلاتها والغابات المجاورة لها والمنزل الذي كان يعود إليه لتناول الطعام والنوم فقط.

أما أخوه حسن علي الذي كان يصغره بعامين، فكان مختلف الهيئة تمامًا، فقد كانت له بشرة أكثر بياضًا، وقسمات وجه أكثر وسامة، ووجنتان بارزتان، وكان تلميذًا صالحًا، هادئ الطباع، رقيق الحاشية، على استعداد دائم لتقديم المساعدة، يساعد والدته وجيرانه في حمل البقالة، أو ملء الدلاء من بئر القرية أو إدخال الماشية إلى الحظائر أو حلب الأبقار، لكن عندما أُغلق الفصل الدراسي الوحيد بالقرية وأرسل التلاميذ إلى منازلهم، تُرك ليخضع لتأثير أخيه السيئ والقيام بما يحلو له، ومع أنه لم يسرق، فقد اشترك في السرقات التي ارتكبها أخوه بالوقوف ساكنًا مرتبكًا إلى حد ما.

ولم يتعجب الصبيان عندما طُلب منهما حضور محاكمة والدتهما على يد والدهما، فقد وجداه أمرًا طبيعيًّا إلى حد كبير، بل رفعا يديهما مع سائر المحكمون الرجال الذين نصبوا أنفسهم بأنفسهم قضاةً عندما سئلوا عما إذا كانوا يجدون ثريا مذنبة.

جلست السيدة زهرة بجوار ابنة أختها ثريا. كانت زهرة تميل إلى الأمام بعض الشيء تبتهل إلى الله. ومع أن شفتيها كانتا تتحركان، فكان من المستحيل

www.ibtesama.com

تقريبًا أن يسمع أحد كلماتها. وكانت تحدق بثبات في ثريا التي شحب وجهها فجأة إلى حد أخافها، فقطعت دعاءها وسألت: «ثريا ... ثريا ... هل تسمعينني؟»

لم تجبها ثريا التي بدت وكأنها في عالم آخر.

فعادت زهرة تسأل: «ابنتي ثريا ... أتستطيعين سماعي؟»

نظرت ثريا إليها في شرود بوجه خال من التعبير.

فمدت زهرة يدها ووضعتها على كتفها.

قالت لها: «أجيبيني ... هل تسمعينني؟»

عندها فقط أرخت ثريا عينيها، وسالت على خديها دمعتان.

فاحتضنتها زهرة بين ذراعيها، مخالفة جميع تقاليد القرية التي تحظر تمامًا مس من حوكم وصدر عقاب بحقه، أيًا كان العقاب.

قالت ثريا: «خالة زهرة، لقد رأيت أمي، كانت تجلس تحت شجرة، مدت إلي ذراعيها وابتسمت لي، وقالت: «أخيرًا يا ابنتي، أخيرًا أتيت، لقد استغرقت وقتًا طويلًا لكي تأتي إلي، استغرقت وقتًا طويلًا للغاية.»» ثم أجهشت ثريا بشدة في البكاء حتى إن النساء في الغرفة المجاورة توقفن عن العويل لحظة.

بعدئذ كان ثمة صوت طرق على النافذة تكرر مرة واحدة، ثم سمعت المرأتان صوتًا يقول: «سيدة زهرة، حانت الساعة. الحاج إبراهيم أمرني بالقدوم لإبلاغك ... أنه عليك المجيء الآن.»

كانت زهرة أول من نهض ثم ساعدت ثريا على الوقوف على قدميها ومن خلفهما وعند مدخل الغرفة المجاورة انتظرتهما النساء الخمس المتشحات بالسواد اللائي لا يزلن يتمتمن بالأدعية، ثم تكرر صوت الطرق من جديد وبدا أكثر إلحاحًا بعض الشيء هذه المرة.

– «سيدة زهرة، أسمعتني؟ ... حان الوقت ... الناس ينتظرون.»

فأمسكت زهرة بذراع ابنة أختها وسارت معها إلى باب المنزل وفي إثرهما مباشرة النساء الأخريات. حينئذ التقت عينا المرأتين لحظة.

همست زهرة لثريا وهي تفتح الباب الأمامي للمنزل: «تحلي بالشجاعة يا ابنتي. أنت بريئة ويعلم الله هذا ... نعم، يعلم الله هذا.»

www.ibtesama.com

فتحت زهرة الباب بحذر وحرص لتهب في وجهها على الفور نفحة من حر لافح ضربتها كالصفعة في مشهد خيم عليه الصمت التام. كانت زهرة أول من جاوز عتبة باب المنزل مرتدية حجابًا برز منه وجهها ذو التجاعيد العميقة والجلد المتدلي، الذي جعلها تبدو كساحرة مخيفة تبث الرهبة والمهابة في القلوب.

وتعلقت أنظار خمسمائة شخص بها.

بعدئذ وعلى حين غرة فتحت أبواب جهنم؛ فعندما برزت ثريا من خلف زهرة مرتدية حجابًا يغطي وجهها كليةً؛ بدأ القوم يتدافعون، ويصرخون، ويصيحون، وارتفعت القبضات في الهواء، ووقفت النساء السبع المتشحات بالسواد بلا حراك في عصر ذاك اليوم الصيفي الحار الرطب، وقد كشفت ست منهن عن وجوههن، وغطى الحجاب إحداهن من رأسها حتى أخمص قدميها، وكأنهن قد تسمرن جميعًا في أماكنهن ينتظرن أوامر الحاج إبراهيم؛ المسئول عن أحداث هذا اليوم غير المعهود ليقرر ما يحدث بعدئذ.

اعتلى إبراهيم سلمًا نقالًا وبدأ في التحدث؛ فخمدت الصيحات بالسرعة نفسها التي تفجرت بها، وقال إبراهيم: «حانت الساعة ... لا بد من تنفيذ الحكم!»

فسرى همس بين الحشد، ثم برز صوت حاد علا على أصوات الآخرين مرددًا: «الآن ... الآن على الفور.»

فردد صوت آخر وكأنه رجع صدى له: «نعم. الآن، لننفذ الحكم الآن.»

ولا يزال هناك صوت آخر يردد: «إنه محق. لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا بما فيه الكفاية. لنقم به، وليكن ذلك سريعًا.»

فرفع إبراهيم ذراعه اليمنى وانتظر إلى أن تخمد الجلبة ثم قال: «اليوم كان يومًا طويلًا وشاقًا، لكنه لم ينته بعد، وحسبما قلت نحن نعتزم المضي في الأمر وفقًا لما يقضي به القانون، والسيد لاجيفاردي الذي يقف إلى جانبي هنا مصمم على تنفيذ كل شيء وفقًا لدستور بلادنا وأحكام الإسلام.»

بعدئذ التفت ناحية زهرة وقال بنبرة مسرحية شديدة: «رجاءً، آتيني بالمذنبة.»

ترددت العجوز لحظة ثم التفتت إلى ثريا وقالت لها برقة: «كوني قوية ... انظري إلى الأمام ... وارفعي رأسك عاليًا؛ فأنت بريئة.»

www.ibtesama.com

شقت الاثنتان وفي إثرهما النساء الخمس النادبات طريقهن بين الحشد الذي أفسح الطريق ليسمح لهن بالمرور، وخيم الصمت التام على المكان.

لكن فجأة شرع القوم في البصق على ثريا والصراخ بإهانات لها وتوجيه الضربات لها بأيديهم وقبضاتهم أثناء مرورها بهم، وكذلك نالت النساء الخمس اللائي تبعنها حظًّا من تلك الضربات، لم يسلم إلا زهرة.

أبصر الحاج إبراهيم كل هذا من أعلى السلم النقال الذي وقف فوقه، لكنه لم يتحرك قيد أنملة لإيقافه؛ فقد علم أنه لا جدوى من ذلك؛ إذ إن الحشد انتظر طويلًا وقد امتلك الحق لأن ينفس عن غضبه.

فجأة هوت قبضة على مؤخرة عنق زهرة، فتوقفت على الفور عن السير ورفعت رأسها وأحدقت فيمن هاجمها، وقالت له: «أيها الوغد، هاك، إليك هذه.»

وبينما نطقت هذه العبارة، وجهت له ضربة مدوية.

فضحك الحشد ضحكة مكتومة وبدا لحظة أن الجميع قد هدءوا بعض الشيء، فواصلت النساء سيرهن إلى منتصف الساحة. وسارت ثريا في إثر خالتها على مسافة قريبة جدًّا حتى بدا وكأن المرأتين متلاصقتان.

أما النساء الخمس النادبات اللائي سرن خلفهما، فقد واصلن دعاءهن وترانيمهن قائلات: «إلهنا القدير ... اغفر لنا خطايانا ... يا محمد ... أرفق بنا.»

توقف ركب النساء أمام السلم النقال، فهبطه الحاج إبراهيم بمساعدة الشيخ حسن، وأحاط الحشد بالنساء والقضاة المتأسلمين على شكل دائرة؛ فقد أراد الجميع أن يشهد بأم عينيه ويستمع بأذنيه إلى ما سيجري بالضبط، وإلى ما ستقوله المرأة التي حكم عليها بالموت في غضون نصف ساعة.

أشار إبراهيم بيده إلى النساء المتشحات بالسواد بحركة بطيئة حاسمة ليأمرهن بالتراجع للخلف، لتصبح ثريا وحدها في مواجهة من حكموا عليها بالموت. لقد بدا الأمر وكأن شخصيته الباهتة تبدلت في ساعات قليلة ليتحول إلى رجل آخر، فبدا أكثر استقامة حتى إنه استغنى عن العصا التي اتكأ عليها. أما الشيخ حسن فقد حرص على التأنق لهذه المناسبة، حتى إنه شعر بالحاجة إلى الذهاب إلى حلاق القرية قبل المراسم الموشكة على البدء،

www.ibtesama.com

ولم يبد الأسى إلا على مرتضى رمضاني الأب المكلوم الذي بدا رث الملابس على غير عادته.

هاج الحشد مجددًا وصرخ: «اقتلوها ... فلتُعدم.»

هنا لم يحاول إبراهيم تهدئة ثورة الحشد؛ فالصرخات العدائية زادت من التوتر، فلم يكن هناك مناخ أفضل من هذا لتنفيذ الحكم بالإعدام. لقد أراد إبراهيم أن تظل أحداث هذه الواقعة محفورة في أذهان أهل القرية إلى الأبد، وأن تصل أصداء تنفيذ هذا الحكم الذي أمر به الله إلى الوادي، وإلى جميع أرجاء الإقليم، ولعلها تبلغ العاصمة.

ماذا لو سمع الإمام نفسه بهذه الواقعة؟ عن هذه التضحية التي قدمت باسمه؟ كم سيكون هذا مشرفًا!

لذا كان من الضروري أن ينفذ كل شيء بدقة حسبما تقضي القوانين.

قال إبراهيم: «ثريا مانوتشهري، بعد مباحثات صادقة وعادلة توصلنا إلى حكم، وأنت تعرفينه.»

فردد الحشد: «الموت ... الموت! ... الموت!»

قال إبراهيم: «أسمعتِ ما قالوا؟ لقد قضت العدالة في بلادنا بإعدامك.»

صاح: «الآن! ... الآن! ... لتفسحوا ولنبدأ.»

لقد بدا واضحًا أن الرجال قد استعدوا بالفعل وتسلحوا بالأحجار، والهراوات، وشتى أنواع المعدات. فالحشد قد خرج تقريبًا عن السيطرة. وشرع الناس في الصفير واستشف إبراهيم في الضحكات عدًاء أصبح مخيفًا أكثر فأكثر. من هنا أدرك أن عليه التصرف بسرعة، وإلا تملك الحشد زمام الأمور بقيادة بعض من تملكهم الغضب وخرجوا تمامًا عن السيطرة.

فقال: «حسبما قلت لكم، كل شيء سينفذ حسبما يقضي القانون وسيحرص السيد لاجيفاردي الذي يقف هنا بجانبي على تنفيذ الحكم حسبما ينبغي، لئلا نلام على الخروج عن حدود الله وأوامر إمامنا الحبيب.»

«الحمد لله ولإمامنا. عاش إمامنا ... عسى الله أن يحمي مرشدنا.»

ومع أنه قد بدا أن الهدوء وجد طريقه بين الحشد بعض الشيء، فإن إثارة غضبه مجددًا لم تكن لتتطلب أكثر من كلمة أو إشارة. من ثم، حث إبراهيم الشيخ حسن بنظرة منه على بدء الكلام، فقال الأخير: «أصدقائي،

www.ibtesama.com

أنتم تعرفونني جيدًا الآن. لم أعش في هذه القرية الجميلة وقتًا طويلًا، لكن الله القدير أرسلني لأكون بينكم، ولن أغادر كوبايه قط، التي أرى أنها جنة الله في الأرض.»

قوبلت كلماته بالتصفيق هنا وهناك. لقد وعى أن عليه مداهنة هؤلاء القوم الهائجين الجهلة ليضمن تنفيذ المراسم حسبما أراد.

لقد خرج هؤلاء القرويون لمراسم الرجم وكأنهم قد خرجوا لمشاهدة الإمام أو أحد أمراء النظام السابق. بعبارة أخرى، كان الأمر لهم بمنزلة مشهد مسرحي أو عرض ترفيهي، يعودون بمجرد انتهائه إلى أداء أعمالهم اليومية وأشغالهم.

ومساءً لن يجلس إلا كبار القرية حول النيران لمناقشة أحداثه والتعقيب عليه آسفين له.

قال الملا حسن مشيرًا إلى ثريا بإصبعه متوعدًا: «هذه المرأة، دنست قريتنا، ولا بد من التكفير عن هذه الشائبة. يا أهل القرية، ستتأرون لأنفسكم بتنفيذ حكم الله.»

فردد الحشد: «الرجم! الرجم! لترجم.»

فاستطرد قائلًا: «نعم يا أصدقائي، أنتم محقون، كل منكم سيحظى بفرصة للتبرؤ من هذا الإثم بقذفها بحجر، لكن لا بد أن يخضع كل شيء لنظام حسبما يقر القانون. ومع كل حجر يلقى، ستستعيدون جزءًا من كرامتكم إلى أن تكفر عن ذنبها.»

«الرجم! الرجم!»

أردف الشيخ حسن كلامه قائلًا: «الآن، اذهبوا، واجلبوا لأنفسكم بعض الأحجار. اذهبوا وعودوا إلى هنا بأسرع ما يمكنكم ... لن نبدأ قبل أن يحمل كل منكم حجرًا.»

فانتشرت عشرات عديدة من الرجال في كافة أرجاء القرية يبحثون عن أدوات فتاكة. جمعوا الحصى من نهر القرية الصغير، والطوب اللبن من حطام أحد الحوائط المتهالكة، وأحجار القرميد من أحد أسقف البيوت المنهارة، بل وصل الأمر إلى أن دمر ستة رجال على رءوس الأشهاد حائط منزل صغير لا يزال تحت الإنشاء لئلا يعودوا أصفار الأيدي!

www.ibtesama.com

وفي غضون أقل من عشر دقائق، عاد الحشد ليشكل دائرة من جديد. ظلت زهرة والنساء النادبات في الصف الأمامي حيث وقف أيضًا غوربان علي وابناه الأكبر سنًّا ونائبا إبراهيم: شكر الله جليلي ومحمد غورباني، والعجوز الضرير.

وأمام هؤلاء وقفت ثريا مانوتشهري وهي لا تزال ترتدي حجابها وقد أيقنت أن مصيرها بات محتومًا، وأن النهاية أتت، فوقفت ساكنة تمامًا على بعد أقل من متر من العمدة والملا ووالدها.

بدأت مراسم الرجم.

قال إبراهيم: «من يحمل معولًا؟ ومن يحمل وتدًا؟»

جال إبراهيم بنظره يبحث عن رسول نجار القرية.

فصاح رجل من مكان ما وسط الحشد: «أنا معي.»

وصاح آخر: «وأنا أيضًا.»

بعد ذلك، صاح آخرون يعرضون المساعدة وما لديهم من أدوات.

أصدر العمدة أمره: «تعالوا هنا. تعالوا قفوا إلى جانبي.»

انضم ستة رجال من أهل القرية إلى الدائرة التي شكلها الحشد؛ والتي كان أفرادها مضطرين للإفساح للسماح لهم بالدخول إليها، ووقف المتطوعون الستة (رسول نجار القرية، وماجد وموشن — ابنا جزار القرية — وأصغر ورحمة الله وعلي أكبر — أبناء عم غوربان علي) في سرور خلف ثريا، وكل منهم يحمل حجرًا في إحدى يديه وأدواته في يده الأخرى. فكان كل من أصغر ورحمة الله وعلي أكبر يبدون دائمًا استعدادهم للمساعدة في أداء الأعمال الشاقة بالقرية. على سبيل المثال: حينما كانت تأتي إحدى الشاحنات إلى القرية — وهو ما لم يكن يحدث كثيرًا — كانوا دومًا يساعدون في تنزيل ما تحمله على متنها من صهريج للغاز أو براميل زيت أو أكياس ضخمة من الأرز أو الأسمنت، وكانوا يهبّون لترميم جسر القرية الصغير الذي يمتد عبر نهرها إذا اقتلعته مياه الفيضانات، ويقطّعون الأشجار، ويحملون الأحجار إلى مواقع البناء، ويذبحون الخراف عند تقديم الأضحيات.

سأل إبراهيم الرجال الست: «هل ستتطوعون جميعًا لهذه المهمة؟»

فأجابوا في صوت واحد: «نعم.»

www.ibtesama.com

فقال إبراهيم مشيرًا إلى رسول نجار القرية ومعوله: «تعال ... اتبعني، تراجعوا أيها القوم.»

فاتسعت الدائرة التي شكلها أهل القرية للسماح له وللحفارين القائمين بالعمل معه بالمرور، فيما لزمت ثريا مكانها وكأنها تمثال أسود.

أشار الحاج إبراهيم إلى بقعة في أقصى جوانب الساحة تتوقف عندها بالضبط الحافلة القادمة من مدينة كرمان، وكانت هذه البقعة ذات أرض صخرية صلبة تناثر عليها عدد قليل من الأعشاب الضارة، وانتشرت فيها العقارب التي نامت تحت ضوء الشمس.

قال إبراهيم لرسول: «عليك بالحفر هنا.» بصق الأخير على كلا كفيه، وأمسك بمعوله، ونظر إلى الحشد ثم صاح بصوت جهوري: «بسم الله.» وبعدها اتخذ وقفة باعد فيها بين ساقيه، ورفع المعول فوق رأسه وضرب به الأرض بكل قوته.

ضرب رسول معوله في الأرض حتى ثلاثين مرة وهو ينادي باسم الله ليهبه الشجاعة.

وبعد عشر دقائق كان عمق الحفرة قد بلغ نحو نصف متر، فعدل رسول قامته لحظة ليلتقط أنفاسه ثم هوى بمعوله مرة أخرى على الأرض، بعدها أشار إليه إبراهيم بالتوقف.

قال له: «هذا يكفي للوقت الحالي. أحسنت عملًا. دع أحدًا آخر يضطلع بالأمر.»

التفت إبراهيم إلى ابني جزار القرية وقال: «من يود أن يضطلع بهذا؟»

أخذ موشن المعول من يدي أخيه واتجه إلى الحفرة ثم صاح: «الحمد لله.» وهو يبدأ الحفر.

أخذت الحفرة في الاتساع سريعًا، وصار لون ترابها داكنًا أكثر مع ازدياد عمقها. هنا أمر إبراهيم بالتوقف مرة أخرى، وأعطى موشن المعول إلى ماجد الذي استمر في الحفر مماثلًا سرعة أخيه في الحفر حتى أصبح عمق الحفرة أقل قليلًا من المتر في غضون عشرين دقيقة أو نحو ذلك.

فقال العمدة: «حسنًا يا أصغر. حان دورك.»

التقط الأخير مجرافًا، وبعدما فرغ من عمله المحدد، نادى العمدة على رسول ليتسلم زمام الأمور من جديد، ثم نادى على موشن وماجد. ولما

www.ibtesama.com

قارب عمق الحفرة مترًا وربع المتر، سأله ماجد: «أهي عميقة بما يكفي الآن»؟

فأجابه إبراهيم: «يجب أن تكون أكثر عمقًا بقليل، لنحفر اثني عشر أو خمسة عشر سنتيمترًا أخرى. فهذا سيكون كافيًا.»

بعد ذلك عاود أصغر الحفر بمجرافه، ثم أعطاه إلى رحمة الله الذي أعطاه بعدئذٍ إلى علي أكبر.

وأخيرًا بدا على الحاج إبراهيم الرضا.

فقال: «هذا جيد. الآن يمكنكم أن تضعوا أدواتكم جانبًا. اتبعوني.»

عاد العمدة ونائباه إلى الدائرة التي شكلها أهل القرية الذين تابعوا ما حدث في صمت ودهشة. كانت الشمس بحلول ذلك الوقت قد شارفت على الغوص في الأفق، وهب نسيم خفيف جعل رجال ونساء كوبايه يتوهمون أن الهواء سيزداد برودة.

طوال وقت الحفر، ظل الشيخ حسن واقفًا بوجه خال من التعبير، وفي مواجهته ثريا، التي كانت تراقبه عن كثب من خلف حجابها الأسود الذي حماها. وفي حيرة، حدقت فيه بازدراء تام، لم تستطع ببساطة أن تتفهم كيف أمكن لمحتال مثله أن يضعها في مثل هذا الموقف، وأن يقودها إلى حافة الهلاك. لقد فطنت إلى حقيقته حينما استقر في القرية بعد أن تحايل للحصول على منزل سيد القرية السابق، ولم تصدق قط ما زعمه عن نفسه من صدق إيمان؛ فأكثر من مرة بذل قصارى جهده — مستغلًا منصبه بوصفه ملا — لإغوائها بالقدوم إلى منزله في الساعات التي تخلو فيها الطرق من المارة؛ عندما كان غوربان في كرمان، وأهل القرية في الحقول يعملون. وفي أوقات أخرى علم فيها أنها كانت بمفردها في بيتها حاول أن تدعوه لبيتها لكي يُحدثها — على حد قوله — عن الله ودور المرأة في الجمهورية الصغيرة ... إلى أن أقحم نفسه بمنزلها ذات مرة بلا دعوة، ولم يكن ليغادره لولا أن طردته منه زهرة.

وقف الشيخ حسن هناك حاملًا مصحفًا في يده، وهو يحدق أيضًا في ثريا من خلف نظارته الداكنة. هو لم ينس المعاملة المهينة التي أشعرته بها عندما قابلت تودده إليها بالرفض. لقد جرؤت على مقاومته، والآن يمكنها

www.ibtesama.com

أن ترى عاقبة هذا الفعل! فعلى الرغم من أنها في الخامسة والثلاثين من عمرها — أو ربما أكبر قليلًا — هي لا تزال امرأة فائقة الجمال. لقد علمت أن زوجها موشك على هجرانها — فقد أعلن لكل من ألقى إليه السمع أنه ينوي الزواج من فتاة من المدينة. وفي ظل هذه الظروف، ما الذي يمكن لها أن تحلم به أكثر من خوض علاقة معه؟

لقد كانت حمقاء عندما رفضته، ولا شك أن العجوز القبيحة زهرة كان لها تأثير سلبي عليها.

ومع ذلك دارت الشائعات بأنه تعامل معها بأسلوب مُغضب ومهين، وانتشرت كالنار في الهشيم في أرجاء القرية عن طريق زهرة التي اعتنت بتذكية هذه الشائعات ببراعة وحذر. فأشارت إليه أصابع أهل القرية بعض الوقت في بداية إقامته وتجنبوه علنًا، لكن غوربان علي تمكن من قلب الأوضاع رأسًا على عقب بأن ألمح إلى أن زوجته امرأة سوء، وأنها في واقع الأمر هي من حاول استدراج الشيخ المسكين إلى فخها لتعريضه للفضيحة. بذا اتجه أهل القرية إلى ازدرائها وتحاشيها بالسرعة نفسها التي أيدوها بها وأشفقوا بها عليها، وبدأت ثريا شيئًا فشيئًا تقع بلا شك في الشرك الذي نصبه لها زوجها، لكنه كان بحاجة إلى تقديم دليل آخر يثبت أن زوجته سيئة السلوك. وإذا بفرصة غير متوقعة لم يكن ليتخيلها قط تصير سانحة أمامه بوفاة فيروزة. ولم يجهل غوربان علي والشيخ حسن الشائعات التي دارت بين أهل القرية عن انجذاب ثريا إلى هاشم؛ فهما من كرراها وبالغا فيها إلى أن وقعت المسكينة في الشرك الذي نصباه لها بعناية ....

صعد الشيخ حسن السلم النقال وقال: «الآن لندعُ الله، لنشكره ونشكر حضرة الإمام المبجل.»

فترددت الأصوات كصدى: «نعم. إنه محق ... إنه محق. لندعو الله.»

فرفع حسن المصحف الذي حمله في إحدى يديه وأخذ يتلو: «بسم الله الرحمن الرحيم.»

ردد الحشد خلفه رجالًا ونساءً على حد سواء: «بسم الله الرحمن الرحيم.»

فاستطرد حسن ومساعدوه في التلاوة في صوت واحد قائلين: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين،

www.ibtesama.com

اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.»

لم يكد حسن ومساعدوه يُتمون هذه الكلمات حتى تناهى إلى الأسماع صوت محرك قوي، وبرزت فجأة من آخر منعطفات الطريق الجبلي المؤدي إلى القرية عربتان مطليتان بألوان مبهرجة يغطيهما التراب. نظر إبراهيم إلى الشيخ حسن، الذي نظر بدوره إلى غوربان علي، الذي حملق فيه هو الآخر. ترى من هؤلاء؟ وما الذي أتى بهم في هذه الساعة من عصر اليوم؟

خرج من السيارتين أربعة أشخاص يرتدون ثيابًا غريبة الشكل: بنطلوناتهم زاهية اللون وقمصانهم سخيفة المنظر، ملونين وجوههم بمواد الماكياج المسرحي، وجميعهم لديهم لحية إما حقيقية أو مستعارة، وشعر أشعث غير مهذب، وفي إثرهم قردان وماعز وكلب.

قال من بدا أنه قائدهم: «مساء الخير أيها السيدات والسادة. تحياتنا لكم. يشرفني أنا وأصدقائي أن نكون هنا في قريتكم الجميلة.»

كانت تلك فرقة استعراض جوالة، إحدى مئات الفرق التي تجوب أرجاء البلاد. استطرد الرجل قائلًا: «أخبرنا أهل مدينة كرمان أن اليوم هو يوم السوق في قريتكم الجميلة، لذا قلنا لنسرع إلى هنا لنرفه ونسري عنكم بعد يوم العمل الشاق الذي عانيتموه ... تعالوا، تعالوا جميعًا، بما في ذلك أنتم أيها الأطفال، لا تخافوا ... تعالوا لتروا الأشياء الرائعة التي أعددناها لكم.»

وبعد أن أتم هذه الكلمات، ألقى نثارًا من قصاصات الورق الملونة في الهواء، ثم ألقاها مرة ثانية ثم ثالثة حلقت فيها قصاصات الورق في السماء التي اصطبغت باللون الفيروزي وكأنها أضواء متلألئة.

وبعدها صاح يخاطب أطفال القرية هذه المرة: «أمسكوا، أمسكوا بالحلوى إن استطعتم.» ورمى بعشرات الحلوى المغلفة بأوراق براقة لتحلق عاليًا، ثم تسقط على أرض الساحة التي يغطيها التراب، ليسرع عشرون طفلًا أو نحو ذلك لالتقاطها.

وقف البالغون من أهل القرية بلا حراك، وقد خيم عليهم الصمت التام: وقف الشيخ حسن أعلى السلم النقال وهو يُحكم قبضته على القرآن

www.ibtesama.com

بكلتا يديه، وعلى كلا جانبيه إبراهيم ومرتضى رمضاني، وفي مواجهته ثريا، ومن خلفه النساء الباكيات، الكل تسمر في مكانه.

فقال قائد الفرقة: «انتهوا من ابتهالاتكم ... نرجو المعذرة ... لم نكن نعلم ... لا تنتبهوا إلينا ... سنقوم بالتجهيزات اللازمة لنا، وعندما تنتهوا رجاءً تعالوا لمشاهدتنا. هناك ما يسر الجميع: حلوى وألعاب وحيوانات ستذهلكم بأدائها، وخدع سحرية لم تروا مثلها من قبل، كل ما يناسب الكبار والصغار على حد سواء ... لكن لن يكون ذلك — حسبما قلت — إلا عندما تنتهوا من ابتهالاتكم، أما الآن، فلا تعيروننا أي انتباه.»

حينئذ انتاب الحشد شعور طفيف بالارتباك، ثم بدأ الحاج إبراهيم في التحدث قائلًا: «ثمة مهمة علينا إتمامها. ليعود الجميع إلى هنا ... وكذلك أنتم أيها الأطفال، بإمكانكم أن تذهبوا لزيارة هؤلاء السادة فيما بعد، عندما ننتهي.»

لقد خفّت حدة التوتر قليلًا، وأدرك العمدة والملا تمامًا أن الحشد قد خرج عن تركيزه، فهبط الشيخ حسن السلم النقال وعدل عمامته على رأسه ثم أعلن قائلًا: «بإذن حضرة العمدة، لنبدأ.»

أشار الحاج إبراهيم إلى زهرة لكي تأتي إليه ومال نحوها قائلًا: «امسكي بالمذنبة من ذراعها واتبعيني، وقولي للنساء الأخريات أن يأتين أيضًا.»

بعد ذلك شق إبراهيم طريقه ببطء وعلى كلا جانبيه الملا ومرتضى رمضاني والد الزانية المذنبة، وبدأ يسير نحو الحفرة النائية المتسعة عن آخرها بجوار المكان الذي توقف عنده أفراد الفرقة الجوالة وركنوا سيارتيهم عنده؛ على بعد مسافة لا تقل عن خمسة وأربعين مترًا.

لم يكن أفراد الفرقة الجوالة قد انتبهوا بعد إلى أي شيء خرج عن المألوف؛ لم يبدُ لهم ذلك الملا الذي وقف على السلم النقال أو أهل القرية المجتمعين للدعاء أو الحفرة التي تقع على بعد مسافة قصيرة من سيارتيهم أمرًا غريبًا إلى هذا الحد؛ فقد شهدوا الكثير من الغرائب أثناء تجوالهم في أنحاء البلاد، ورأوا ما يفوق هذا المشهد غرابةً، لكن من الواضح أنهم لم يتهيئوا لما بدا عليه الأمر الآن، وبالأخص مشهد أهل القرية وهم يتقدمون

www.ibtesama.com

ببطء وتصلب نحوهم حاملين الأحجار والمعاويل والعصي مرددين آيات القرآن.

اعتدل الرجل الذي بدا قائدًا للفرقة في وقفته ثم نادى رفاقه قائلًا: «انظروا! ... انظروا إلى هذا ... إنهم قادمون نحونا.»

مسح الرجل عرق جبينه وتلعثم قائلًا: «أيها السادة ... أيها السادة ... ما ... ما ... ما الأمر بالضبط؟ ماذا تريدون منا؟ أتريدوننا أن نرحل؟ فقط أخبرونا بما تريدونه وسنسعد بالقيام به.»

تقدم إبراهيم وحسن ومرتضى رمضاني نحوهم دون الرد عليهم وفي إثرهم مباشرة مائتان وخمسون شخصًا تحمل أعينهم نظرات مفترسة. وقف العمدة على قيد خطوات قليلة منهم ثم قال: «أريدكم أن تبتعدوا عن هنا. خذوا سيارتيكم واركنوهما في مكان آخر، سريعًا. ألا ترون أننا منهمكون في أمر ما. الآن، قوموا بما آمركم به، وأسرعوا.»

– «حسنًا. في الحال يا سيدي. الآن ... لكن، ما الأمر؟»

«سترى قريبًا ... لتذهبوا الآن بحق رب السماء! احملوا كل ما معكم. أترون تلك الأشجار هناك؟ اذهبوا لركن سيارتيكم تحتها. يمكنكم أن تشاهدوا إن شئتم. لكن الأهم أن تلزموا مكانكم.»

لم يكن الزائرون بحاجة لأن يكرر إبراهيم الأمر الصادر لهم، فتقهقروا بسيارتيهم إلى الخلف لما يقرب من ثلاثين مترًا، حاملين معهم كل حيواناتهم ومعداتهم.

هنا استدار إبراهيم وقال: «زهرة، اجلبي المذنبة إلى هنا.»

تراجع الحشد إلى الوراء ببطء حينما برزت النساء. وعندها فقط تجلى لأفراد الفرقة الجوالة ما يحدث: ست نساء يرتدين عباءات سوداء إحداهن يغطيها الحجاب من رأسها إلى أخمص قدميها سرن نحوهم، وعشرات الرجال حملوا الطوب والحجارة، فذعر أفراد الفرقة، وتراجعوا بضع خطوات إلى الخلف. وساورتهم حينئذ الرغبة في الرحيل عن القرية، لكنهم تسمروا في أماكنهم وكأنهم قد أصيبوا بالشلل من أثر الدهشة والعجب؛ فلزموا أماكنهم وحرصوا على مسافة آمنة تفصل بينهم وبين أهل القرية. وحينما وصلت زهرة وثريا إلى نقطة تبعد عن الحفرة بمسافة تسعة أمتار أشار إليهما إبراهيم بالتوقف.

www.ibtesama.com

قال إبراهيم: «هذا يكفي ... الآن استديرا، ولتواجهانا بحيث يراكما الجميع.»

فاستدارت المرأتان. وفي الصف الأمامي من الحشد وقف الملا ووالد ثريا وزوجها وابناها الأكبر سنًّا ونائبا العمدة، والعجوز الضرير الذي سار دائمًا في إثر الآخرين وحمل في يده هو الآخر حجرًا وضعه القوم في يده.

خيم صمت ثقيل على الساحة.

قال إبراهيم: «سيدة زهرة، ارفعي الحجاب عن المذنبة.»

ففعلت زهرة ما أمرت به ببطء شديد: تركت ذراع ثريا المسكينة ثم استدارت لتقف أمامها ورفعت عنها حجابها الذي حمى وجهها من نظرات أهل القرية المحدقة بها.

كانت مطبقة العينين، تبدو — إلى حد بعيد — أكثر شحوبًا مما كانت عليه حقيقة؛ بفعل الحجاب الذي غطى رأسها، وانطبقت شفتاها بشدة إحداهما على الأخرى، بينما ارتجف فمها قليلًا.

على نحو مفاجئ، تابع الحشد صب لعناته عليها: «عاهرة! ... ساقطة! ... مومس لا تعرف الحياء ... بغي ... لتُقتل البغي! ... الموت للعاهرة!»

ارتفعت الأذرع استعدادًا لقذف وابل من الطوب والحجارة، فوقف إبراهيم فيما بين ثريا وزهرة وأهل القرية.

قال: «أصدقائي، حان الوقت ... لا بد أن ينفذ الحكم ... لقد أمرنا الله بذلك.»

فصاح صوت: «لقد انتظرنا بما فيه الكفاية.»

وصاح آخر: «إنه محق، لقد استغرق هذا وقتًا طويلًا بما فيه الكفاية، لنفرغ من هذا ونَعُد إلى أعمالنا.»

«الموت للساقطة! الآن! وليس في وقت آخر. الآن!»

فرفع العمدة يده وقال: «كل شيء سينفذ حسبما قضى الله، لن يتغير شيء، يجب أن تصبروا.»

حينئذ أوتي بالسلم النقال إليه، فتسلقه بصعوبة شديدة.

بعدها قال إبراهيم: «سيلقي مرتضى رمضاني الذي نكن له بالغ الاحترام الحجر الأول، وإن لم يصبها سيُعطى حجرًا آخر. بل في الواقع،

www.ibtesama.com

سيُعطى عددًا كبيرًا من الأحجار حتى يتمكن من إصابة المذنبة. بعدها سيحين دور غوربان علي.»

فصاح شخص من الحشد: «هذا هو عين العدل. عاش مرتضى!»

استطرد إبراهيم قائلًا: «بعدها سيحين دور حسن لاجيفاردي بصفته ممثل الله بيننا وإمام القرية.»

فصاحت أصوات أخرى بغضب أكبر: «الحمد لله ... عاش إمامنا. عاش السيد لاجيفاردي.»

تابع إبراهيم كلامه قائلًا: «بعدها سيحين دور ابني المذنبة الغاليين حسين علي وحسن علي اللذين عانيا معاناة هائلة منذ الصباح، وبذا سيرد إليهما شرفهما.»

بعد ذلك نظر حوله إلى الدائرة التي شكلها الحشد الذي خيم عليه الصمت مجددًا وقال: «وأخيرًا، سيأتي دور مجتمعنا الصغير. كل منكم سيملك الحق لرجم تلك المرأة غير الجديرة بالاحترام، التي لوثت شرفنا جميعًا بأفعالها.»

جلجلت صيحات الفرح في أرجاء المكان أعلى وأكثر من أي وقت مضى، وارتفعت الأذرع تلوح مهددة، وخطا الحشد بضع خطوات إلى الأمام.

فهبط إبراهيم السلم النقال وخاطب زهرة مجددًا قائلًا: «سيدة زهرة، هلا تفضلت برفع عباءة المذنبة عنها.»

أدركت زهرة منذ تلك اللحظة أن مصير ثريا بات محتومًا، وأنه ليس هناك ما يمكن فعله للحيلولة بين وقوع ما هو آت؛ وفتحت عباءة ثريا السوداء ببطء لتكشف عن الرداء الأبيض الذي ارتدته، فلاحظ مرتضى رمضاني أن ابنته ترتدي القلادة التي أهداها إياها في اليوم السابع من وفاة زوجته شوكت. فعدل قامته بصعوبة شديدة وصرخ بصوت أجش: «انزعي هذه القلادة أيتها الابنة الوضيعة. انزعي هذه القلادة ... إنها تخص الراحلة أمك الورعة ... رباه. كم علي أن أحتمل؟»، ثم هوى على الأرض.

نزعت زهرة القلادة الذهبية الرقيقة عن عنق ثريا وأعطتها للعمدة، الذي أعطاها بعدئذ للعجوز مرتضى رمضاني الذي تلقى المساعدة للنهوض على قدميه ببطء وترك القلادة تنسل في جيبه عندما أفاق من غشيته.

www.ibtesama.com

قال العجوز : «أيتها البغي ... يا من لوثت شرف الأسرة! ... أيتها التعسة! ... عودي إلى التراب الذي جئت منه!»

بعناية شديدة، أمسكت زهرة بثريا التي كانت مكشوفة الرأس مغمضة العينين من ذراعها، وقادتها بخطى قصيرة إلى الحفرة المتسعة عن آخرها.

قالت زهرة: «ادعِي الله يا ابنتي. ادعِي بكل ما أوتيت من قوة. فالله ينتظرك وأبواب الجنة مفتوحة لك، وادعِي لنا أيضًا فنحن نجهل ما نفعله.»

شعرت زهرة برغبة في احتضان ثريا بين ذراعيها لكنها لم تقو على هذا، فضغطت على ذراعها برفق والتقت عينا المرأتين لحظة قصيرة ودعتا فيها كل منهما الأخرى للمرة الأخيرة.

حينئذ أصدر إبراهيم أمره لزهرة قائلًا: «سيدة زهرة، تعالي هنا. انضمي إلينا.»

أدارت ثريا ظهرها للحشد الذي خيم عليه الصمت، ووقفت مستقيمة بلا حراك على مسافة لا تتعدى مترًا من الحفرة، وشعرها الطويل ينسدل على كتفيها إلى خصرها.

أمر الحاج إبراهيم ثريا بالالتفات؛ فاستدارت إلى أن التقى وجهها بوجوه أهل القرية، لكنها هذه المرة لم تغمض عينيها، بل أخذت تتفرس وجوه من شاهدوها بدون أن تجفل. كان هناك شكر الله جليلي ومحمد غورباني نائبا العمدة، والشيخ حسن الذي بدا عليه الزهو أكثر من أي وقت مضى وهو يرتدي رداء الملا، وغوربان علي، وابناها اللذان حملا حجرين في يديهما. والتقت عيناها بعيني والدها، لتلمح فيهما لوهلة حرجًا وارتباكًا؛ إذ خفض عينيه عندما نظرت إليه مباشرة، وإلى جانبه وقف الحاج إبراهيم طويل القامة الواهن متكئًا على عصاه، ومهدي الجزار، ورسول النجار، ومسعود الحلاق، وسائر رجال القرية، وأخيرًا الخالة زهرة ضئيلة الجسم التي يصعب إيجادها بين النساء النادبات.

www.ibtesama.com

الفصل السابع

دنا أفراد الفرقة الجوالة من الحشد مسافة قليلة، دون أن يحدثوا أي جلبة. فقد أبقوا على حيواناتهم في سيارتيهم القديمتين المتهالكتين ووقفوا لمشاهدة ما يحدث من بعيد. وبينما لا يزالون بزينتهم وملابسهم الغريبة، ساروا بضع خطوات إلى الأمام ببطء؛ لئلا تفوتهم لحظة من ذلك «المشهد» العجيب.

لقد استمعوا أثناء الرحلات التي قاموا بها على مر السنين — أثناء ترحالهم من بلدة إلى أخرى ومن قرية إلى أخرى — إلى آلاف القصص، واختزنوا آلاف الذكريات التي اعتمدوا عليها في إثراء عروضهم وإضفاء الإثارة عليها. وكانت تلك القصص والذكريات بمنزلة سجل تاريخي للأماكن التي زاروها يتغير بتغير الأحداث ومرور الوقت، أو قصة خرافية يروونها شفهيًّا أو رسم كاريكاتوري للحياة اليومية في المناطق الريفية. ومع ذلك لم يشهدوا من قبل إعدامًا، ناهيك عن كونه قتلًا بالرجم. وعلى الرغم من أن الأعوام القليلة الماضية شهدت بلا شك ارتفاعًا ملحوظًا في عدد أحكام الإعدام في كافة أرجاء البلاد حتى إنهم سمعوا قصصًا عن الموت شنقًا والقتل رميًا بالرصاص، فهذه المرة كانوا يشهدون حدثًا مروعًا سيذكرونه دائمًا منذ تلك اللحظة، وينسجون أحداثه نسجًا مبالغًا فيه كيفما يشاءون، حتى إن ما رأوه قد أرعبهم.

وبإشارة من الحاج إبراهيم، تقدم شكر الله ومحمد للأمام من الصف الأول من أهل القرية.

www.ibtesama.com

وكانت المرأة المحكوم عليها بالإعدام تقف في مواجهة الحشد الصامت، مرفوعة الرأس وقد تعلقت عيناها بالعجوز زهرة التي حدقت بدورها فيها.

وبإشارة أخرى من العمدة، تأبط شكر الله ومحمد ذراعي ثريا وصحباها إلى الحفرة ثم حملاها ووضعاها فيها.

هنا سرى همس بين حشد أهل القرية. فكان العقاب حقًّا على وشك الحدوث هذه المرة. وهذا هو ما أتى بهم إلى هنا، وكان ضجرهم يزداد أكثر فأكثر، وازدادوا هياجًا وهم ينظرون إلى المرأة التي لا تملك دفاعًا عن نفسها وهي تُوضع في الحفرة. وانتظروا أوامر الحاج إبراهيم حاملين الأحجار في أيديهم.

عاد الحفارون بالمجارف والمعازق وبدءوا في ملء الحفرة بالتراب مرددين «باسم الله» في كل مرة يهيلون فيها التراب ليهبهم الشجاعة.

لاحظت زهرة أن الرجال أدوا مهمتهم بشكل من الاحترام والضمير المهني؛ فلم تصدر عنهم أي حركات فظة ولم يظهروا أي عنف ولم يكونوا في عجلة من أمرهم، وحرصوا كل الحرص على ألا يلوثوا فستان زهرة الأبيض دون ضرورة وعنوا بشكل خاص بألا يؤذونها بأي صورة. وترك الرجال أدواتهم عندما رفع إبراهيم يده مشيرًا إليهم بالتوقف.

دفن جسد ثريا في الأرض حتى كتفيها وذراعيها. كان شعرها الطويل ينسدل حولها. وبدت شاردة الذهن تنظر حولها بدون أن ترى، وتسمع الأصوات من حولها بلا تمييز.

تابع الحاج إبراهيم كلامه قائلًا: «ثريا مانوتشهري، حان وقت تنفيذ حكم الله، حان الوقت الذي ستجبرين فيه على دفع ثمن خطاياك. ألديك ما تقولينه؟ هل هناك ما تودين إخبارنا به؟»

لم تجبه ثريا. لم تكن حتى تنظر إلى العمدة آنذاك؛ فكانت تحدق في شرود في الفراغ من حولها، ذاهلةً، غارقةً في أفكارها.

استطرد العمدة قائلًا: «إن كان لديك ما تقولينه فقد حان الوقت لذلك ... بعد الآن سيكون الوقت قد فات.»

خيم صمت ثقيل على نحو لا يصدق. ترقب الحشد وقد انتابه الذهول بعض الشيء أن تنبس ثريا ببنت شفة، أو أن يطرف لها جفن انتظارًا لأي إشارة. أما زهرة، فكانت تعلم أن صديقتها الشابة لن تقول أي شيء آخر.

www.ibtesama.com

واصلت النساء النادبات عويلهن.

قال إبراهيم: «سأسألك للمرة الأخيرة أن تتكلمي إن كان لديك ما تقولينه؛ فقد حان الوقت لذلك. بعدها، سيكون الوقت قد فات.»

انتظر إبراهيم بضع ثوانٍ ثم التفت إلى مرتضى رمضاني وانحنى نحوه بتبجيل وسأله باحترام بالغ: «سيد رمضاني، بصفتك والد الزانية، هل لديك ما تقوله؟»

حاول العجوز ذو الظهر المنحني أن يعدل قامته ثم صرخ ثائرًا: «لننفذ مشيئة الله ... هي لم تعد ابنتي ... وأنا لم أعد والدها ... إنها غريبة عني ... لنفرغ من هذا وننجزه بأسرع ما يمكن!»

دوت بعض الصيحات مرددة: «عاش السيد رمضاني»، «إنه محق، لنفرغ من هذا وننجزه بأسرع ما يمكن.»

بعد ذلك استدار العمدة إلى الشيخ حسن الذي لزم الصمت لحظة وسأله: «سيد لاجيفاردي، بصفتك ممثل إمامنا المبجل في قريتنا، هل لديك ما تضيفه؟»

هز الشيخ حسن كمي ردائه الديني، ثم رفع عاليًا مصحفًا التفَّت حوله مسبحته وقال: «لتُنفذ مشيئة الله القدير وحكم الإسلام.»

تعلقت أنظار أفراد الفرقة الجوالة بالمراسم التي تكشفت تدريجيًّا أمام أعينهم، وكأنهم قد تسمروا في أماكنهم كالحجر. ولأنهم وقفوا في مكان يبعد قليلًا عن الحشد، نسي أهل القرية أمرهم ولم يفكر أحد حتى في النظر إليهم.

وهنا بدأ كل شيء.

بإشارة جامعة أشار الحاج إبراهيم بذراعيه إلى الحشد بالرجوع عدة خطوات إلى الخلف، ثم أخرج من جيبه حبلًا، وقاس عليه مسافة تقارب ستة أمتار ونصف، ثم قطع الحبل بعناية وأعطاه إلى شكر الله.

وقال: «يتراوح طول هذا الحبل ما بين ستة أمتار ونصف أو سبعة أمتار ونصف. اذهب وارسم به دائرة تكون الحفرة مركزها، وعين حدودها بالجير الحي.»

فرسم شكر الله دائرة على الأرض مركزها رأس ثريا.

www.ibtesama.com

وبذا أعد مسرح الأحداث، لقد أضحى الهدف مرئيًّا للجميع، وهو نقطة تجمع بين اللونين الأبيض والأسود يحاول المشاركون في تلك اللعبة الرهيبة أن يصيبوها.

انتشر الحشد حول محيط الدائرة وخيم صمت شديد حتى الإبرة لو سقطت لسُمع رنينها. بدا الأمر وكأن القرية تقيم طقسًا متوارثًا يعرفه الجميع منذ أجيال، نقل الآباء قواعده إلى الأبناء واضطلع الحاج إبراهيم فيه بدور الوسيط.

خشي أفراد الفرقة الجوالة أن تُسمع أنفاسهم، لقد أرادوا الاقتراب أكثر من الحشد لكنهم تخوفوا من أن تصيبهم الأحجار، فقد وقفوا خلف ثريا مباشرة، أمام أهل القرية المتسلحين بالأحجار. كان رأس الضحية يبعد عنهم مسافة ما بين أربعة عشر وخمسة عشر مترًا فقط، لا يرون منه إلا شعرها الداكن المنسدل حولها على الأرض.

أخذ العمدة حجرًا وأعطاه لوالد ثريا قائلًا: «لك شرف إلقاء الحجر الأول ... من فضلك ابدأ.»

وضع العجوز عصاه على الأرض وأمسك بحجر كبير في يده، وحمد الله، ثم سحب ذراعه إلى الخلف، ورمى بالحجر بكل قوته صوب ابنته صارخًا: «الحمد لله. هاك أيتها العاهرة، خذي هذه!»

أخطأ الحجر هدفه، فأعطى إبراهيم العجوز حجرًا آخر ألقاه مجددًا وهو يصرخ بالسباب. حاول العجوز أن يصيب ابنته أربع مرات بلا جدوى.

فقال ثائرًا: «أعطني حجرًا آخر، سأسحق جمجمتها ... سأشق رأس تلك المرأة.»

فأوضح له إبراهيم أنه لا يستطيع أن يتجاوز الخيط الأبيض بأي حال من الأحوال، لأن هذا سيكون خروجًا عن حدود الله.

بعدئذ حان دور غوربان علي، الذي شمر عن ساعديه ووضع بعناية كومة من أربعة أحجار إلى جانب قدميه، وانتظر إشارة الحاج إبراهيم.

قال له العمدة برقة: «حان دورك يا بني، عسى الله أن يرشد ذراعك.»

سحب زوج الزانية — حسبما بدا — ذراعه إلى الخلف، ورمى حجره ليطير بسرعة البرق صوب رأس زوجته ويخطئه بنحو خمسة عشر سنتيمترًا، إلا أن ثريا لم تتحرك قيد أنملة، أو يبد عليها الخوف أو يطرف لها جفن.

www.ibtesama.com

فصاح الرجال الذين وقفوا في الصفوف الأمامية: «رمية جيدة يا غوربان علي. حاول ثانية ... ستصيب تلك العاهرة القذرة.»

فالتقط زوج ثريا حجرًا آخر وقذفه في الهواء لحظة وكأنه يتحرى وزنه وحجمه، ثم نظر من حوله إلى جمهوره وكأنه لاعب رياضي في ملعب يحاول أن يحطم رقمًا قياسيًا. بعدها تراجع إلى الخلف من جديد وألقى الحجر الثاني ليلامس رأس ثريا فقط.

فتنهد المشاهدون بشكل جماعي للتعبير عن شعورهم بالإحباط، لكن قبل أن يلتقطوا أنفاسهم، قذف غوربان حجرًا ثالثًا ضرب كتف ثريا الأيمن.

فخرج صوت يكاد لا يسمع من فمها وارتجف صدرها رجفة طفيفة.

هنا صرخ الحشد بطريقة هيستيرية وسرت موجة من التصفيق بين الرجال، وارتسم ظل ابتسامة على وجه غوربان. بعدها التقط غوربان حجرًا آخر، وصوبه بمزيد من الدقة، ثم رماه بأقصى قوته ليصيب هذه المرة جبهة ثريا عند حد شعر رأسها، وينشق جلد الجبهة لتسيل منه الدماء على وجه ثريا ورأسها حينما انتفضت جبهتها بعنف إلى الخلف.

سرت قشعريرة في أبدان أهل القرية من أثر الفرح والنشوة، وخطوا بضع خطوات إلى الأمام دون الانتباه إلى أنهم جاوزوا الخط الأبيض الذي ميز الحد الخارجي لمنطقة الرمي.

وصاح البعض: «هكذا يتم الأمر، لقد أصبتها! أحسنت يا غوربان علي. لقد أصابها، أرأيتم؟ ارم حجرًا آخر. هيا، أعطِ تلك العاهرة ما تستحقه.»

بعدها حان دور ابني ضحية القرية، فالتقط كل منهما حجرًا ورميا بهما في وقت واحد، أحدهما أصاب ثريا في رأسها، وبينما انتفض الرأس إلى الخلف من جديد، دوى صوت يماثل صوت الفواق العالي.

شاهد أفراد الفرقة الجوالة ما يحدث في ذهول، فغشيهم المشهد وتجمدوا في أماكنهم وانعقدت ألسنتهم، لا يجرؤ أحدهم على التقدم إلى الأمام قيد أنملة؛ فكانت العديد من الأحجار تدور في الهواء لتصل إلى حيث يقفون تقريبًا.

بحلول ذلك الوقت، كانت الأحجار تتدافع في الهواء بأعداد كثيرة وسرعة كبيرة وتتكدس حولهم على الأرض، حيث قبع أمامهم على بعد سنتيمترات

www.ibtesama.com

قليلة رأس لم يروا وجه صاحبته قط، رأس ظل يتمايل سريعًا إلى الأمام والخلف مع كل حجر يضربه. ولاحظ أفراد الفرقة أن أهل القرية لم ينفكوا عن الزحف أقرب فأقرب إلى الرأس على الرغم من التحذير المُلح الذي وجهه العمدة إليهم؛ فكانت النتيجة ازدياد عدد الضربات المباشرة على نحو أكبر بكثير مما كان عليه عندما بدأ مشهد الرجم.

وأخيرًا حان دور الشيخ حسن، الذي وضع مصحفه في يده اليسرى ثم التقط بيده اليمنى حجرًا ضخمًا، لكنه قبل أن يلقيه التفت إلى الحشد وقال بنبرة منمقة رنانة: «لست أنا من يرمي ... وإنما الله هو من يرشد ذراعي ... هو الذي يأمرني. لا أقتص لنفسي وإنما أقتص لإمامنا، أقتص للجريمة الشنعاء التي اقترفتها هذه المرأة.»

هنا دوى التصفيق من الحشد على نحو يصم الآذان.

فاستطرد الشيخ قائلًا: «سأرمي من الأحجار بقدر ما يتطلبه قتل هذه العاهرة، وبعدها يمكن لسائركم أيضًا أن يرموا أحجارهم.»

ما إن أخذت الدماء تسيل على رأس ثريا، حتى دارت زهرة على عقبيها وغادرت المكان. كانت تعلم أن استشهاد ثريا سيستغرق عدة دقائق وبعدها سيرفق بها الموت ويحتضنها بين ذراعيه. فلم تستطع الصمود أمام عنف المشهد غير المحتمل الذي بدا وكأنه يصعق سائر أفراد القرية ويحولهم إلى وحوش كاسرة. فهؤلاء عهدتهم زهرة جميعًا، عهدت كلًا منهم، وشهدت ولادة أغلبهم، لكنهم فجأة بدوا لها مجرد كتلة من الكراهية والعار.

فملأ الأسى والألم قلبها وجلست على المقعد الخشبي أمام متجر خباز القرية وهي تحدق في الأرض.

كلما سمعت صراخ الحشد، علمت أن حجرًا آخر قد أصاب ابنة أختها.

لقد لامت نفسها على أنها لم تحاول حتى أن تقف في وجه الأمر، مع أنها كانت تعلم جيدًا أنه لم يكن هناك ما بمقدورها فعله للحيلولة دون وقوعه، ومع ذلك شعرت بالخجل من نفسها على نحو لم تشعر به قط.

فالحاج إبراهيم الذي احترم رأيها وكثيرًا ما استمع إلى نصحها كان التأثير عليه قد أصبح أكثر سهولة مع كبره، حتى صار خاضعًا لتأثير الشيخ حسن. بعدئذ صارت الدائرة حول ثريا أكثر إحكامًا بسبب عجز ثريا

www.ibtesama.com

عن البوح عما تخفيه من أسرار، وعجزها عن الدفاع عن نفسها، وخوفها، والأكاذيب التي أشاعها عنها زوجها وهاشم.

ظلت زهرة تردد لنفسها بين الحين والآخر: «لو كان لدي الشجاعة لأقول شيئًا دفاعًا عن تلك الفتاة المسكينة البريئة من كل إثم!»

بين عشية وضحاها أصبحت زهرة التي عُهد فيها القوة والتأثير امرأة يملؤها الخوف والجبن، شأنها شأن سائر نساء القرية تذعن إذعانًا تامًّا للقوانين التي وضعها الرجال.

هل كان الحاج إبراهيم سينصت إليها إن أخبرته بكل ما علمته، ورأته، ووعته؟ هل كان بإمكانها أن تعيد إلى هذا الرجل — الذي طلب منها النصح كثيرًا في الماضي — صوابه؟

لكن ألم يكن شريكًا فعليًّا في تلك المؤامرة البشعة؟ لقد تحول في غضون أشهر قليلة إلى رجل عنيف متغطرس فاشستي بعد أن كان بوجه عام رجلًا متحفظًا عادلًا، وكأن هناك ما يجنيه من وراء تلك المؤامرة البغيضة، شيء يسبب له خزيًا كبيرًا.

في مركز الدائرة كانت ثريا تلفظ آخر أنفاسها ببطء، بدا رأسها وصدرها وكأنهما مجرد كتلتي لحم داميتين مشوهتين. كان حشد أهل القرية الصاخب قد خرج تمامًا عن السيطرة واضطربت صفوفه واقترب أكثر استعدادًا للقتل، وأضحت فروة رأس ثريا مجرد جرح متسع عن آخره، وتهشم فكها، وانبجست عيناها، وشج أنفها، ومالت رأسها بزاوية عجيبة — كأنها قناع كرنفالي غريب الشكل — على ما تبقى من كتفها الأيمن.

في الصف الأمامي من الحشد رفع الشيخ حسن الذي تناثرت الدماء على ردائه ذراعه ودعا الحشد إلى الصمت ثم قال: «أصدقائي الأعزاء ... استمعوا إلي لحظة ... أعتقد أن أمر الله قد نفذ وأن مشيئته قد تمت. هل هناك من يود أن يتأكد من أن العاهرة قد ماتت؟»

رفع عدة رجال أيديهم، واختار الشيخ حسن سعيدًا حفار آبار القرية ليتولى هذه المهمة، فاستلقى الأخير على الأرض بالقرب من ثريا بالضبط ووضع أذنه إلى جانب فمها الفاغر ثم قال: «إنها حية ... العاهرة لم تمت بعد.»

www.ibtesama.com

خطا رجل إلى الأمام ببطء حاملًا فوق رأسه حجرًا بكلتا يديه ثم هوى به على رأس ثريا مباشرة، ثم تبعه آخر التقط طوبة إلى جانبها وضربها بها ثائرًا ست مرات حتى انشق الرأس وخرج منه المخ ليسقط على الأرض.

هنا انطلقت صيحة فرح مدوية رددوا فيها: «الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر ... الحمد لله!»

ورفع حسن لاجيفاردي مصحفه دلالةً على النصر، وأمر أهل القرية بالالتفاف حوله في دائرة قائلًا: «لنحمد الله القدير.»

صمت الحشد فجأة، وبعد لحظة من التأمل ردد الحشد مع حسن لاجيفاردي: «بسم الله الرحمن الرحيم.»

قبل أن تتشكل الدائرة كان رجال القرية قد وقفوا متقاربين جدًّا حول جثمان ثريا يحجبون عن أفراد الفرقة الجوالة المشهد الذي تمثل للعيان الآن: أسراب هائلة من الحشرات أخذت تجتمع حول جثمان ثريا الدامي. تراجع أفراد الفرقة بضع خطوات إلى الخلف خوفًا، وهم عاجزون عن انتزاع أنظارهم عن هذا المشهد المخيف، وخطا كلب بضع خطوات جيئة وذهابًا حول الجثمان المهشم، لكن بدا أنه يخشى الاقتراب.

على المقعد الذي جلست عليه زهرة أمام متجر خباز القرية، كانت منهكة القوى وقد اعتراها يأس تام. لم تعد الأصوات تتناهى إلى سمعها، فعلمت أن النهاية قد حلت؛ أن «القانون» وضع محل التنفيذ حسبما شاءوا.

أبصرت خفي إبراهيم البالديين يتوقفان إلى جانبها، فلم ترفع رأسها له، فتنحنح العجوز وقال لها: «زهرة، لقد انتهى كل شيء ... العدالة تحققت ... الآن كل شيء على ما يرام.» ثم توقف لحظة واستطرد: «أليس لديك ما تقولينه لي؟»

عندها فقط عدلت قامتها ونظرت إلى الرجل الذي كان صديقًا لها خمسين عامًا وقالت له: «صديقي إبراهيم المسكين ... لا يسعني إلا أن أشعر بالخزي لك ... عسى الله أن يغفر لك ما فعلت.»

فودعها العجوز وسار بعيدًا عنها ببطء متكئًا على عصاه، وقد لاحظت زهرة من الخلف أن ظهره أصبح أكثر انحناءً مما كان في العادة.

لكنها لم تشعر تجاهه حتى بقدر ضئيل من الشفقة.

www.ibtesama.com

الفصل الثامن

غابت الشمس خلف الأشجار، وأخذت ثلاثة كلاب ضالة جذبتها رائحة الدماء تتشمم المكان حول الجثمان بانفعال. وكان أهل القرية قد عادوا إلى مزاولة أعمالهم وتركوا جثمان ضحيتهم في العراء حسبما يقضي القانون لتكون عبرة للجميع.

دارت الكلاب حول الجثمان في دوائر متحدة المركز أخذت تضيق أكثر فأكثر لتصير الكلاب أكثر قربًا من الجثمان. بعد ذلك وعلى نحو مفاجئ انقض أحدها فجأة وحاول أن يمسك برأس ثريا جاذبًا إياه بأقصى قوته في محاولة لفصله عن الجسد. فهبت زهرة من مقعدها وركضت حاملة عصا في يدها وهي تصرخ ثائرة: «ابتعدي عن هنا أيتها الحيوانات القذرة، اغربي عن هنا.»

التقطت زهرة حجرًا وقذفت به الكلب، لكنه لم يصبه، فتراجع بضع خطوات إلى الخلف وهرب الكلب كاشفًا عن أنيابه قبل أن يصل آخرون من أهل القرية للمساعدة في مطاردة الكلاب التي احتمت بين أفراد الفرقة الجوالة حيث جلست تلعق أقدامها وتزمجر.

قالت زهرة: «أحضروا لي غطاءً بسرعة، أو ملاءة، أو أي شيء.»

غطى هؤلاء أشلاء ثريا ثم عاد الجميع إلى مزاولة أعمالهم. كانت الساعة وقتئذ السادسة مساءً. خيم السبات على القرية، وخلت الأسواق من المشترين عدا عدد قليل تحدث بصوت خفيض، وتناهى إلى الأسماع بين الحين والآخر صوت عال لصراخ طفل يبكي أو صوت أم تنادي على ولدها أو ابنتها للعودة إلى البيت، أو صوت نعيب غراب. ومجددًا تناهى إلى الأسماع

www.ibtesama.com

صوت خرير مياه نهر القرية الصغير أو حفيف فروع الأشجار التي يداعبها نسيم الليل. أخذ أفراد الفرقة الجوالة وهم لا يزالون تحت تأثير الصدمة في إفراغ متاعهم ببطء شديد وكأنهم يقومون بذلك على مضض، ونصبوا سلمهم وفرشوا بسطهم على الأرض ووضعوا أحد القردة التي صحبوها معهم على صندوق، وتأكدوا من سلامة طلاء وجوههم.

في هذه الأثناء اجتمع أعضاء مجلس دار بلدية القرية في منزل الشيخ حسن لاحتساء الشاي والتدخين، حيث جلسوا يخيم عليهم الصمت وقتًا طويلًا وكأنهم انتبهوا أخيرًا إلى هول ما فعلوا. فنظر إليهم الشيخ حسن من خلف نظارته الداكنة بوجه خال من العاطفة وهو يتفرس ملامحهم واحدًا تلو الآخر، وبعد أن فرغ من احتساء الشاي بدأ في التحدث إليهم.

قال الشيخ: «حضرة العمدة، سيد مرتضى رمضاني، عزيزي غوربان علي وجميع المجتمعين هنا، كان من الضروري أن نحظى بلحظات التأمل والتدبر القليلة تلك لنضع أحداث اليوم خلفنا ونمضي قدمًا. لقد أرادنا الله أن نتمتع بتلك اللحظات القليلة الهادئة، كذلك علينا ألا ننسى أن كل ما فعلناه هو تنفيذ مشيئته. لا تنسوا أن هذه المرأة ليست أول من يرجم في بلادنا منذ أن أعيد تطبيق قوانين الله، لقد لاقت العشرات من قبلها المصير ذاته، وسيتبعها المزيد إن انتهكت حرمة الله أو اعتُدي عليها مرة أخرى ... ليس علينا أن نتخوف مما فعلناه. غدًا في أقرب وقت ممكن، سأبلغ السلطات بما حدث هنا اليوم. ودعوتي أكرر لكم أن قرية كوبايه ستكون في غضون بضع ساعات قرية نموذجية يحتذى بها وتتحدث عنها كافة أركان البلاد.»

جلس الرجال الذين بلغ عددهم اثنا عشر رجلًا أو نحو ذلك هناك ينصتون بجدية إلى حديث الشيخ حسن الذي لم يقطعه إلا صوت رشفات الشاي وهمهمات الرجال وهم يومئون برءوسهم موافقةً على كل ما يقوله.

استطرد الشيخ حسن قائلًا: «أصدقائي، كان الشر يرتع في هذه القرية دون علمنا ... من حسن الحظ أن القدير برحمته التي لا تعرف الحدود قادني إلى هذه الجبال. لقد أرادني الله أن أنقذ قريتكم من الوقوع في الشر والخطيئة. لنشكر الله ونشكر رسوله ....»

هنا علا صوتهم جميعًا: «بسم الله الرحمن الرحيم.»

www.ibtesama.com

فجأة انفجر مرتضى رمضاني باكيًا، وأخذ يضرب رأسه بكلتا قبضتيه وهو يتأوه ويولول منتحبًا قائلًا: «أشعر بالخجل ... رباه، أشعر بالخجل. أشعر بالعار يغمرني ... لكن، كيف هذا؟ رباه القدير أرفق بي ... سامحوني يا أخوتي.»

هنا تململ سائر الرجال في جلستهم وهم في حيرة مما عليهم فعله، فلما أحس الملا منهم ارتباكًا، تحرك سريعًا للإبقاء على الأمور قيد السيطرة.

فقال: «سيد رمضاني، ليس هناك ما يدعوك إلى أن تشعر بالخجل ... نحن نحبك ونحترمك. أنت الأكبر بيننا. اعلم أن باستطاعتك أن تثق في أننا سنمنحك الحب والحنان إن احتجتهما. القرية هي دارك، وأبواب منازلنا ستكون مفتوحة لك دائمًا. لن ننسى قط أنك كنت أول من رجم الزانية، وأنك من أرشدنا، وكنت مثالًا لنا فحذونا حذوك مثلما يحذو الابن حذو أبيه. لذا سنكون دائمًا مدينين بالفضل لك.»

قوبلت كلمات الشيخ حسن بتصفيق طويل حار.

وتمتم العجوز ببضع كلمات شكر للشيخ، لكنه ظل مكبًا على وجهه يدفنه بين كفيه.

هنا أخذ الحاج إبراهيم يتحدث: «من كان يظن عندما استيقظنا هذا الصباح أننا سنشهد تلك الأحداث الأليمة في هذه القرية اليوم؟ إنها مشيئة الله، وحسبما قال السيد لاجيفاردي وهو يذكرنا بذلك قبل قليل، فكل ما فعلناه هو تنفيذ حكمه. لكن لا شك أن نسيان ما حدث اليوم سيستغرق وقتًا طويلًا ....»

قاطعه غوربان علي الذي جلس بعيدًا بعض الشيء عن سائر المجموعة وقال: «هذا غير صحيح، هذا غير صحيح على الإطلاق، أنا عن نفسي نسيت كل شيء ... لا أريد حتى أن أفكر في الأمر ثانيةً، لا أريد أن أتحدث عنه ثانية. لقد انتهى الأمر بالنسبة لي.»

ومع تلك الكلمات نهض على قدميه وضرب أحد الكراسي، ثم سار بخطى واسعة عبر الغرفة وهو يتمتم لنفسه ببعض الكلمات ثم صفق الباب خلفه.

من جديد خيم الصمت على الغرفة. في نهاية الأمر استطرد الحاج إبراهيم قائلًا: «دعوني أكرر لكم ما قلته قبل الآن. سيتطلب نسيان ما حدث

www.ibtesama.com

هنا اليوم وقتًا طويلًا منا، خاصة من الكبار بيننا، لكن عندما يُظهر الله آياته، علينا أن نعتبر جميعًا كبارًا وصغارًا. ليس مرتضى رمضاني وحده هو من يعاني، جميعنا يعاني.»

فأومأ الشيخ حسن برأسه موافقًا على ما قاله الحاج إبراهيم.

واستطرد إبراهيم قائلًا: «الآن لنتحدث عن دفن ثريا. أعتقد أن لدى السيد لاجيفاردي بعض الآراء في هذا الصدد. أليس كذلك؟»

فنظر الجميع إلى الملا الذي لم يتوقع أن يُطرح هذا السؤال فقال: «نعم ... نعم. لدي آراء كثيرة في هذا الصدد، لا بد أن يزال جثمان تلك المرأة من مكانه قبل مغرب الشمس، ولكنني أعتقد — وأنا على يقين أنكم تتفقون معي في هذا — أنه لا يجب أن تدفن في مقابرنا، فهذا ليس المكان الذي يليق بها.»

هذه المرة ذهل إبراهيم، فيما اتفق سائر أعضاء المجلس مع الشيخ حسن في الرأي.

أيد شكر الله رأي الشيخ حسن وكأنها فكرته قائلًا: «لا نريدها أن تدفن في مقبرة قريتنا؛ لا يجوز أن يكون مثواها الأخير بين موتانا.»

قال محمد غورباني: «أؤيد هذا. ليس بين موتانا.»

وقال رجل ثالث مؤيدًا ذلك الرأي: «لا نريدها هناك.»

فالتفت الحاج إبراهيم إلى مرتضى رمضاني وسأله عن رأيه قائلًا: «وما رأيك أنت يا صديقي؟»

حينها بدا أن العجوز لا يسمع شيئًا.

فعاد إبراهيم يسأله: «مرتضى، فيم ترغب؟ أين تود أن تدفن ثريا؟»

فظل والد ثريا صامتًا مكبًّا رأسه بين كفيه.

فقال الشيخ حسن: «إن رأى الجميع أنها يجب ألا تدفن في مقابرنا، فسيكون عليكم أن تقرروا أين ستدفن خارج القرية. أنتم أعلم بالمنطقة مني. أترك لكم القرار.»

أخذ الرجال في مناقشة المسألة، لكنهم لم يجمعوا على رأي. دارت مناقشاتهم بلا آخر، وبدا الأمر لحظة أنهم حتى على وشك التشاجر، فتدخل الشيخ حسن قائلًا: «إن صح فهمي لكم جميعًا أنتم لا تريدونها أن تدفن

www.ibtesama.com

في مقبرة القرية، لكنكم لا تريدونها أيضًا أن تدفن في الحقول بالخارج لأنها حقولكم، وأنتم لا تريدون تدنيسها ... هل أصبت؟ أهذا هو موضع خلافكم؟»

فأومأ جميع الرجال برءوسهم بشدة.

قال الشيخ حسن: «أظن أن لدي حلًّا، لكنني أولًا أريد أن أحظى بإجماعكم. هل تتفقون جميعًا على أن ثريا مانوتشهري قد ألحقت بنا العار وأذلتنا؟»

أجاب الجميع في صوت واحد: «نعم، لقد ألحقت بنا جميعًا العار وأذلتنا.»

فقال حسن: «هل تجمعون على أنها كانت مسلمة غير صالحة كذبت على الله؟»

أومأ المجتمعون بالموافقة من جديد.

عندئذ استطرد حسن قائلًا: «هل تجمعون أيضًا على أنها انصرفت عن تعاليم رسول الله؟»

فصاحوا ثانية بالإيجاب وأنهم يبدون موافقتهم.

أضاف حسن: «هل تجمعون على أنها خانت تعاليم إمامنا الحبيب؟»

– «نعم، خانتها.»

– «إذن أقول لكم هذا: اقتراحي هو ألا تدفن على الإطلاق.»

نظر بعضهم إلى بعض في صمت وذهول.

فاستطرد حسن قائلًا: «لقد سمعتموني. لن تدفن.»

خيم صمت لحظة قطعه الحاج إبراهيم قائلًا: «لقد سمعناك يا شيخ حسن وأنا موقن من حكمة قرارك.»

فتابع حسن كلامه قائلًا: «ثريا مانوتشهري عاشت حياة خداع وخزي، وخانت أمانة الله مثلما خانت أمانة رسوله وأمانة إمامنا، وكذبت على أسرتها وزوجها وأطفالها، وخانت القرية بأسرها، وحاولت أن تقود صديقنا هاشم الذي لا يزال ينعي وفاة زوجته المبكرة إلى الضلال. لقد عاشت كالعاهرة، وماتت كالعاهرة؛ لذا سيلقى جسدها في الحقول لتلتهمه الوحوش التي ستختفي بقاياه.»

www.ibtesama.com

لم يستطع إبراهيم أن يصدق أذنيه. لقد ود أن يقول شيئًا، لكن قبل أن يفعل كان سائر الرجال قد أيدوا الشيخ تأييدًا حارًا.

قال أحدهم: «هذا القرار يبدو لنا جيدًا ... لتعود العاهرة إلى الحيوانات التي تنتمي إليها ... لن تُدفن. المسلمون الصالحون وحدهم هم من يستحقون دفنًا لائقًا.»

فرفع حسن لاجيفاردي كلتا يديه قائلًا: «أصدقائي الأعزاء، أقترح أن يُعفى من تلك المهمة معشرنا، معشر الرجال الذين يحيون هنا حياة شريفة. لندع تلك المهمة للنساء. إن أراد رسول أو سعيد المساعدة في إخراج الجثمان من الحفرة بمعاولهما ومجاريفهما فليكن، لكن بعدها سيكون على النساء التخلص من هذا الجثمان النجس.»

فقال الرجال: «أحسنت قولًا، لنبدأ.»

نهضوا جميعًا وغادروا المنزل، وأخذ حسن وإبراهيم يسرعان السير، وفي طريقهما مال الملا على العمدة قائلًا: «أعتقد أن عليك الذهاب إلى السيدة زهرة وإبلاغها بهذا فورًا؛ فأنت وحدك من يستطيع أن يجعلها تتفهم قرارنا، وكذلك لن تتحرك النسوة إلا بموافقتها.»

تمتم إبراهيم في تذمر: «لن يكون هذا سهلًا، أنت تعرف هذه المرأة.»

– «ليس بقدر ما تعرفها أنت ... ستجد الكلام المناسب، لكن لا تضيع أي وقت.»

هنا دوى صوت بوق وقرع طبول، فاتجهت أنظار الجميع إلى الفرقة الجوالة. كانت مِعزاة الفرقة تصعد السلم النقال، وقردها منهمكًا في القيام بشقلبات بهلوانية.

صاح الشيخ حسن وهو يتجه مسرعًا نحو المهرجين: «كفوا عن هذا، كفوا عن هذا فورًا. ليس هذا وقته، انتظروا إلى أن تفرغ الساحة، بعدها يمكنكم أن تبدءوا.»

توقفت الموسيقى، وتوقف القرد عن القيام بألاعيبه.

بحلول ذلك الوقت كان العمدة قد اتجه إلى منزل زهرة وطرق بابها. لم يكن متحفزًا لتلك المقابلة، لكنه أعد في ذهنه ما سيقوله بالضبط. لقد التزم بأداء واجباته طوال اليوم؛ لذا لم يكن على استعداد للتراجع الآن بعدما

www.ibtesama.com

انتهى الرجم وانتهى كل شيء. طرق الباب ثانية، وأخيرًا وبعد وقت طويل سمع جوابًا؛ ففَتح باب المنزل ودلفه.

ثم قال: «ساندك الله القدير يا سيدة زهرة، وكذلك كل أفراد أسرتك.»

فلم ترد له زهرة التحية إلا بإيماءة رأس تدل على أنها سمعته ثم دعته للدخول والجلوس. كانت تجلس على الوسائد المفترشة على الأرض نفسها التي جلست عليها ثريا قبل ساعات قليلة، تدخن سيجارًا لفته لتتنفثه، وأمامها كوب من الشاي الساخن لم تقدمه لزائرها خلافًا للتقاليد.

قالت زهرة: «أعلم ما أتى بك، وإجابتي لك هي لا.»

إزاء هذا ارتبك إبراهيم فقال: «عم تقولين لي لا؟ أنا لم أخبرك حتى بسبب قدومي.»

فأجابته زهرة: «أعلم جيدًا ما الذي دعاك إلى القدوم، إنه دفن المسكينة ثريا، لا أود أن يكون لي دخل به؛ أنتم من ارتكب هذا العمل الوحشي، ومن ثم تكفلوا أنتم به. لن تتحرك النساء قيد أنملة لمساعدتكم.»

قال إبراهيم في نفسه إن البداية غير مبشرة. أخرج غليونه من جيبه وملأه بالتبغ بعناية.

قال: «ليس هذا هو ما أتيت لأحدثك بشأنه، على الأقل ليس بالضبط.»

لقد أدرك أن عليه أن يمسك بزمام الأمور من جديد، وإلا طردته العجوز من بيتها قبل أن يطلعها على خطة الشيخ حسن.

من ثم قال: «سيدة زهرة، لقد أتيت لأطلعك على قرار مجلس دار بلدية القرية.»

– «أتعني أنك أتيت لتبلغني بقرار نذير الشؤم ذاك الذي يرتدي زي رجل الدين. دعني أخبرك بشيء، فأنا وأنت أصدقاء منذ زمن بعيد جدًّا. أعلم أنك في قرارة نفسك لست راضيًا عما أرسلت لتخبرني به، وأعلمُ أيضًا أنني سأرفض كل ما ستخبرني به. لتخبرني بأنني مخطئة في ذلك.»

هنا أدرك العمدة أن مهمته ستكون أصعب حتى مما توقع، لكنه أحجم عن مقاطعتها وقال لها: «لا يهم ما أراه، لقد صوتنا واتُّخذ القرار، وعلي أن أحرص على تنفيذه.»

«إذن لمَ أتيت لتخبرني به؟ هل صارت آراء النساء تزن شيئًا في هذه القرية الآن؟ هل كانت تزن شيئًا الأعوام الماضية؟»

www.ibtesama.com

– «لقد أتيت لأخبرك بأن دفن ثريا قد أوجد مشكلة، فلا يريد أحد دفنها في مقبرة القرية.»

– «هل سألتني عن رأيي؟ وماذا لو أخبرتك بأنني أريدها أن تدفن مع أسرتها بجوار والدتها؟»

– «هذا ليس حقًا ما أتيت لأخبرك به. الشيخ حسن يرى أنها لا تستحق أن تُدفن على الإطلاق.»

– «قل لي هذا ثانيةً. حاج إبراهيم! أتجرؤ على قول هذا لي ثانية؟ هي لا تستحق الدفن على الإطلاق؟»

– «شريعة الله تقضي بحرمان من رجمن حتى الموت من الدفن. هذا هو ما يقوله الشيخ حسن.»

– «وما أدراه؟ ... عله رجم أخريات حتى الموت. أهكذا فعل؟»

– «هو يقول إن من يحيدون عن صراط الله لا يستحقون أن يدفنوا مع من عاشوا حياة شريفة.»

كانت المناقشة بين الصديقين طويلة ومريرة؛ فكلاهما رفض أن يتخلى عن موقفه، لكن في نهاية الأمر، خرج إبراهيم من منزل زهرة وقد حصل على مراده. فمع حلول الليل، ستحمل النساء الجثمان إلى خارج كوبايه.

تولى سعيد ورسول مهمة رفع الجثمان المريعة، الذي تجمعت حوله بحلول هذا الوقت أعداد هائلة من الذباب، على الرغم من القماش الذي غطاه. استخدم الرجلان مجارفهما ومعاولهما. كانت الرائحة لا تطاق. وأخذت الكلاب التي دنت من الجثمان تنبح بشراسة أكبر.

عندما تحرر جذع ثريا من سجنه بين التراب، مال رأسها على أحد جانبيها وهو يبدو وكأنه قد انفجر، لينفصل عن جسدها مصدرًا طقطقة كالغصن الذي ينكسر. حينئذ توقف سعيد ورسول فجأة عن عملهما، وأدارا رأسيهما بعيدًا.

لما أصبحت الحفرة بالعمق والاتساع الكافيين لاحتواء الرجلين، نزلاها وحملا إلى خارجها الجثمان الذي انفصل عنه رأسه ولا يزال مكسوًا بفستان زهرة الأبيض.

قال الشيخ حسن الذي شاهد الرجلين أثناء عملهما: «أشكركما يا أيها السيدان، الآن اذهبا لتغتسلا. سيكافئكما الله على صنيعكما.»

www.ibtesama.com

فهرع سعيد ورسول في اتجاه نهر القرية الصغير.

قال حسن: «غطوا الجثمان بضع دقائق قبل أن تأتي النساء ليتكفلن بالأمر.»

اقتربت الكلاب التي أصابها السعار من الجثمان وأمسك أحدها بالقماش الذي يغطيه بين أسنانه ونزعه عنه كاشفًا من جديد الجسد المشوه ليراه الجميع، وبسرعة تراجعت الكلابُ التي أثارت رائحة الجثمان جوعها عندما وصلت النساء.

عندما نظرت زهرة إلى المشهد الرهيب عن كثب، انتابها شعور بالغثيان؛ فغطت أنفها بمنديل، وأصدرت بعض التعليمات باقتضاب. افترشت النساء ملاءة كبيرة على الأرض، وحملت زهرة الجثمان بمساعدة أكرام زوجة جزار القرية وسكينة زوجة حلاق القرية وكَفَنَّه بالملاءة، ثم أُحضرت بطانية لفتها النساء حول الجثمان، وحملنه إلى عربة جررنها بصعوبة شديدة عبر القرية وخارج ساحتها، وفي إثرهن الكلاب التي بدت مخيفة أكثر فأكثر.

كلف الحاج إبراهيم ثلاثة من رجال القرية بتنظيف البقعة التي جرى فيها الإعدام، فملئت الحفرة بالتراب، ومهدت الأرض وسويت لإزالة آثار الدماء، ثم أتى سعيد بعربة تجرها اليد مملوءة بتراب نقي نثر على تلك البقعة.

بحلول ذلك الوقت، كان الليل قد حل، وهب معه نسيم جميل لطف الأجواء. أخذ أفراد الفرقة الجوالة في تجهيز معداتهم من جديد وسط ساحة القرية.

وفي هذه الأثناء، على بعد نصف ميل من القرية في اتجاه نهر القرية الصغير، توقفت النساء لالتقاط أنفاسهن. بدا على زهرة التعب الشديد، وكأنها شاخت ذاك اليوم أكثر مما شاخت على مدار العشرين عامًا الماضية، وبدا جسدها أكثر ضآلة من ذي قبل. كانت مساء الأمس تحتضن بين ذراعيها ابنة أختها التي اتكأت عليها لتجلب لها بعض الفاكهة من حديقتها. أما الآن — بعد أربع وعشرين ساعة فقط — فهي تحمل جثمانها بعد أن وافتها المنية.

كانت تعيش كابوسًا.

www.ibtesama.com

قاطعت إحدى النساء الصمت الذي خيم على المجموعة وسألت: «كم يبعد المكان الذي سنحملها إليه يا سيدة زهرة؟» فأجابت زهرة وهي لا تزال تمسك بقوة بالعربة التي كانت على وشك أن تفلت وتنزلق على أرض الطريق القاحلة: «تبقى منعطف واحد. سنحمل ثريا إلى بقعة بقرب النهر الصغير، إنها بقعة أغرمت بها، أعتقد أنها أفضل مكان نحملها إليه.»

قبلت رفيقاتها بهذا الاقتراح وواصلن مسيرتهن الحزينة والكلاب لا تزال في إثرهن تتشمم الطريق وهي بعيدة عنهن بعض الشيء.

في نهاية الأمر توقف الركب، وثبتت النساء عجلات العربة في الأرض بحجرين كبيرين لئلا تتحرك، وعقدن حجابهن حول خصورهن، ثم حملن الجثمان الذي لفه غطاء بني خشن بحذر شديد لما يقرب من تسعة أمتار أو نحو ذلك بعيدًا عن الطريق. بعد ذلك وضعنه بالقرب من منحدر النهر بين شجيرتين شائكتين صغيرتين.

تأكدت زهرة من تغطية الجثمان بالكامل ومن التفاف أطراف الغطاء حوله بإحكام حتى لا تنفذ إليه الحشرات وأحاطته بدائرة من الأحجار الضخمة ثم غطته ببعض الأغصان وأوراق الأشجار الميتة. ظلت النساء هناك وقتًا طويلًا يخيم عليهن الصمت التام، ثم تسلقن منحدر النهر وعدن إلى القرية وهن يجررن خلفهن العربة الخاوية الملطخة بالدماء، ومع اقترابهن من كوبايه، علا صوت البوق وقرع الطبول شيئًا فشيئًا.

عندما بلغت زهرة ساحة القرية، اصطدمت بمشهد يثير الذهول الشديد. في البقعة ذاتها التي رجمت فيها ثريا حتى الموت، أوقد أهل القرية النيران ابتهاجًا ورقصت القرية حول ألسنتها، وأخذ أفراد الفرقة الجوالة في تقديم العروض، وارتدت النساء أبهى الثياب الملونة، ودرن في حلقات، فيما رقص الرجال بعضهم حول بعض ملوحين بمناديل بيضاء وهم يطلقون صيحات فرح قصيرة. إزاء هذا تسمرت زهرة في مكانها وكأنها تحولت إلى حجر، عاجزة عن تصديق عينيها؛ لم يمض على إعدام ثريا إلا ساعات قليلة، لكن هؤلاء القوم تناسوا ما حدث بالغناء والرقص، وكأنهم في عيد الأربعاء الأحمر الذي دأبت فيه البلاد بأسرها على إشعال النيران ابتهاجًا وطردًا للأرواح الشريرة التي تلبث دهرًا طويلًا.

www.ibtesama.com

استطاعت زهرة تمييز كل من سعيد ورسول اللذين رفعا لتوهما جثمان ثريا، ومهدي جزار القرية وهو يثب مرحًا حول مسعود الحلاق، وعلى مسافة أبعد كان نائبا إبراهيم يرقصان ويغنيان، ثم العجوز الأعور، ويد الله راعي الغنم وابنه وهما يضحكان بشدة، وكريم وأصغر، وماجد وموشن ورحمة الله وعلي أكبر، وغيرهم من الرجال. وعلى مسافة قصيرة من هؤلاء كان حسين علي وحسن علي منهمكان في التهام بطيخة.

في آخر الأمر وقعت عينا زهرة على الحاج إبراهيم والشيخ حسن اللذين وقفا أمام متجر خباز القرية. وبجانبهما كان مرتضى رمضاني شديد الضآلة الذي بدا وكأنه قد غط في النوم قليلًا. خاض الرجلان حديثًا طويلًا قطعاه عندما رأيا النساء يسرن نحوهما، وحيَّيَاهُن بإيماءة بسيطة. أما زهرة فمرت بهما دون أن تنظر صوبهما.

قصدت زهرة دارها وصفقت الباب خلفها، أما النساء الأخريات فقد اختفين تحت جنح ظلام الليل وهن يغادرن، تاركات أهل القرية لاحتفالهم المشين.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، خرجت زهرة من بيتها وتسللت خارج القرية وهي تسير بمحاذاة الجدران كاللص لئلا يلحظها أحد.

كان الدخان لا يزال يتصاعد من رماد النيران التي أشعلت مساء الليلة السابقة وأفراد الفرقة الجوالة ينامون إلى جانب سيارتيهم. سارت زهرة ما لا يقل عن نصف ميل في الطريق نفسه الذي سلكته مساء الليلة السابقة حتى بلغت المنعطف السادس، وهناك اتخذت طريقًا مختصرًا بين الغابات إلى أن دنت من النهر الصغير، فلم تستطع أن تكبت صرخة رعب.

على قيد ثلاث خطوات فقط منها أربعة كلاب ضالة مستغرقة في النوم، امتلأت بطونها من أثر الوجبة التي تشاركت في التهامها، ولطخ فراءها وأنوفها دم جاف. لم يتبق شيء من جثمان ثريا؛ فالكلاب التهمت كل شيء، وتناثرت في أرجاء المكان عظام بشرية وبقايا البطانية البنية وبضع خِرَق من ردائها، وعلى مسافة أبعد قليلًا كان ما تبقى من رأس ثريا ....

استندت السيدة العجوز زهرة إلى شجرة وتقيأت، ثم جلست على الأرض ممددة الساقين وقد أعياها التعب. وظلت هناك ساعة حتى عادت إليها

www.ibtesama.com

قواها في آخر الأمر، فنهضت وقذفت بكل قوتها أحد الكلاب النائمة بأكبر حجر بين الأحجار التي ترامت حولها، فعوى الكلب ألمًا وسارع بالفرار بين شجيرات الغابة وفي إثره الكلاب الأخرى التي ذعرت بدورها.

من جديد عقدت زهرة حجابها حول خصرها وانحنت على الأرض وأخذت في حفر الأرض الناعمة الرطبة بيديها، فلما صنعت حفرة بالاتساع الكافي، جمعت عظام ابنة أختها ثريا واحدة تلو الأخرى وحملتها إلى النهر الصغير وغسَّلتها ثم عادت ووضعتها بحذر في الحفرة، وغطت الحفرة ببعض أوراق الأشجار والأغصان. وبعدها فقط دعت الله وانفجرت باكية.

www.ibtesama.com

«وكأن مأساة إغريقية تحل بإيران العصر الحاضر ... امرأة فاضلة تتهم ظلمًا بالزنا، ويشرف على مراسم إعدامها رجل دين زائف، وتدخل فرقة سيرك في إحدى جولاتها البلدة أثناء إجراء مراسم الإعدام المريعة.»

— صحيفة كليفلاند بلاين ديلر

«إعادة سرد لا سبيل لمحوها من الذاكرة: قصة مأساوية تثير النفوس وتدعو للرثاء فضلًا عن كونها مشحونة بالانتهاكات الأخلاقية ... تعد عريضة اتهام لا تنسى — كتبت وترجمت بأسلوب رائع — تبين مدى قسوة الرجل على المرأة، وقبح الاستبداد عندما يتقنع بالنزاهة.»

— مجلة كيركس ريفيوز (في إشادة بالكتاب)

أراد زوج ثريا مانوتشهري أن يتزوج من امرأة أخرى، لكنه لم يملك المال الكافي لذلك. من ثم بدلًا من أن يعيد إلى زوجته مهرها حسبما تقضي التقاليد لدى اتخاذ زوجة ثانية، تآمر مع أربعة من أصدقائه ومُلا زائف لكي يتخلص من زوجته، واتهموها جميعًا بالزنا؛ فأجريت محاكمة سريعة، فيها عُدَّ صمت ثريا ويأسها إقرارًا بإثمها؛ فحكم عليها بالموت رجمًا، وهي عقوبة تحظرها تعاليم الإسلام، ولكنها تمارس في الكثير من البقاع الإسلامية. يعيد المؤلف صاحب جم سرد تلك الأحداث المريعة وكأنها مشهد حي يعيشه القارئ بدءًا من تزايد عنف زوج ثريا تجاهها إلى إعدامها المريع الذي كان فيه والدها وزوجها وابناها من أوائل من يقذفونها بالحجارة.

هذه قصة امرأة واحدة، لكنها ترمز إلى قصة مئات النساء اللائي عانين ولا زلن يعانين المصير نفسه، وبما أن إيران بدأت تتحول إلى قوة عالمية فلا بد من روايتها.

فريدون صاحب جم: ابن سفير إيراني سابق يعمل صحفيًا، حكم عليه بالموت غيابيًا بسبب عمله سرًا على كتابة تقارير تنتقد الحكومة الإيرانية. وهو يعيش مختبئًا في فرنسا.

١٢٨ صفحة

ISBN 978-977-6263-79-6

9 789776 263796

كلمات عربية

http://www.kalimatarabia.com

www.ibtesama.com